الفصل الثاني

الاسرة العمورية ومحاولات استعادة كريت

(٨٢٠ – ٨٦٧ م)

– الحملات البيزنطية على كريت فى عهد الامبراطور ميخائيل الثانى وأسباب فشلها .

– العوامل التى ادت الى انصراف الامبراطور ثيوفيل عن محاولة استرداد كريت .

– الصراع بين كريت وبيزنطة فى عهد الامبراطور ميخائيل الثالث .

.....

عرضنا فى الفصل السابق للفتح الاسلامى لكريت مع الاهتمام بتحليل العوامل السياسية الخاصة بالجانب البيزنطى ، التى مهدت لهذا الفتح وساعدت على نجاحه . وكان من الطبيعى ان يقوم الصراع بين الفاتحين المسلمين والدولة البيزنطية صاحبة السيادة السابقة على هذه الجزيرة . وقد شهد عصر الامبراطور ميخائيل الثانى العمورى (٨٢٠ –٨٢٩م) بداية هذا الصراع العنيف الذى دام لفترة طويلة من الزمن . فلاشك ان هذا الامبراطور قد ادرك مدى الخطر الذى سيلحق بالممتلكات البيزنطية نتيجة لاستيلاء المسلمين على جزيرة كريت . فان موقعها الاستراتيجى الهام كان مما يتيح لهم التحكم فى مداخل البحر الأيجى ، كما يهيئ لهم السيطرة على جزر وسواحل هذا البحر وتهديد سواحل آسيا الصغرى وبلاد اليونان هذا الى جانب الخسارة الاقتصادية التى تتعرض لها الدولة البيزنطية بفقدها مثل هذه الجزيرة الغنية بمواردها الطبيعية ، فضلا عن تهديد المسلمين بكريت

لتجارة بيزنطة مع عالم البحر المتوسط .يضاف لذلك ان كريت كانت فيما مضى من الممتلكات البيزنطية ، ومن ثمة فان تفكير الامبراطور ميخائيل الثانى فى استردادها يعتبر امرا طبيعيا ، خاصة وان احوال بيزنطة الداخلية والخارجية آنذاك كانت تسمح بالقيام بمحاولات فى هذا المجال . ففى الداخل ثم اخماد الفتن الدينية، وتوقف اضطهاد عباد الصور المقدسة . كذلك نجح ميخائيل الثانى فى توطيد سلطته بالقضاء على الاضطرابات الداخلية التى هددت عرشه ، والتى تمثلت فى الحركة السياسية الاجتماعية الدينية المعروفة بثورة توماس الصقلبى . اما فى الخارج فقد كان السلام هو الطابع المميز لعلاقات بيزنطة بجيرانها على الحدود المختلفة، فارتبطت مع مملكة بلغاريا بهدنة الثلاثين عاما ، التى عقدت فى عام ٨١٤م ، والتى كانت لاتزال سارية المفعول حتى ذلك الوقت ، وبناء عليها فقد سادت العلاقات الودية بينهما وبين مورتاجون ملك البلغار ، وكان من مظاهر هذا الود تعاونه مع الامبراطور ميخائيل الثانى ضد الثائر البيزنطى توماس(١)أما الروس فى الشمال ،فحتى عام٨٦٠م لم يسببوا متاعب تذكر للامبراطورية البيزنطية(٢) كما سيطر الهدوء ايضا على الجبهة الشرقية للامبراطورية ، رغم عدم وجود معاهدات سلام بينها وبين العباسيين ، وذلك نظرا لانشغال الخليفة العباسى المأمون بقمع الفتن والثورات التى قامت فى دولته ، والتى كان من

---

(١) انظر الفصل الأول من هذا البحث ص ٨٦ وما بعدها .

(2) Bury, History of Eastern Roman Empire, p. 419; Ostrogorsky, History of Byzantine State, p. 202.

أبرزها فتنة بابك الخرمى (١) : فى اذربيجان وارمينيه .

وهكذا كانت الظروف مهيأة لميخائيل الثانى للقيام باكثر من محاولة ، بقصد استرداد كريت من يد فاتحيها المسلمين . وقام هذا الامبراطور بثلاث محاولات تمثلت فى ثلاث حملات ارسلها على كريت . وللاسف ، فان المادة التاريخية التى اوردتها المصادر البيزنطية عن هذه الحملات الثلاث ضئيلة للغاية لاتزيد عن الاشارات السريعة العابرة ، والمرجح ان السبب فى ذلك يرجع إلى ان تاريخ الاسرة العمورية قد دونه المؤرخون فى عهد الاسرة المقدونية التى قامت على انقاضها وحرصت على طمس معالم هذه الحقبة من التاريخ البيزنطى لاسباب سياسية . وكانت اولى هذه المحاولات ، تلك الحملة البحرية التى اسندت قيادتها الى القائد البيزنطى فوتيناس Photinas حاكم ثيم الاناضـــول ، وهو ممن ينتمون الىاعرق الاسرات البيزنطية، وقـــد اشار الى هـــذه الحملة عدد من المؤرخين البيزنطين المتأخرين نسبيا ، مثل صاحب صلة ثيوفان، وكيدرينوس ، وزوناراس .

---

(١) بابك الخرمى هو زعيم طائفة الخرمية فى أذربيجان ، واسم الخرمية مشتق من كلمة «خرم» ، التى يفسرها ابن خلدون بمعنى «فرح» وهذه الطائفة ذات مبادىء دينية تدعو إلى الالحاد والتمتع بمسرات الحياة إلى أقصى درجة حتى قيل أنهم لا يعرفون دينا غير اللذة . وكانوا يعتقدون فى مذاهب المجوس ، وكان لهذه الطائفة أهدافا سياسية معينة ، وكانت بداية فتنة بابك فى عام ٢٠١ هـ (٨١٦ – ٨١٧ م) فى عهد الخليفة العباسى المأمون ، واستمرت حتى عهد الخليفة المعتصم ، الذى تم له اخمادها فى عام ٢٢٣ هـ (٨٣٨ م) على يد قائده القدير الأفشين، وقبض على بابك وتم تشهيره على فيل فى مدينة سامراء العاصمة العباسية فى ذلك الوقت، ثم أمر الخليفة المعتصم بقتله وأرسلت رأسه إلى اذربيجان ، أما جسده فقد صلب فى سامراء .
انظر : تفاصيل هذه الفتنة فى المصدرين التاليين ، الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ١٠ ، ص ٣١٧ – ٣٣٢ ، ابن خلدون : العبر ، جـ ٣ ، ص ٢٥٤ ، ٢٥٦ .

ولم يحدد هؤلاء المؤرخون تاريخ وصول هذه الحملة الى كريت ، وتبعا لذلك فقد اختلف المؤرخون المحدثون حول هذا الامر ، فذكر المؤرخ الروسى الاصل فازيلييف ان تاريخها لايجاوز كثيرا عام ٨٢٨ م / ٢١٢ — ٢١٣ هـ(١) على حين رجح المؤرخ الانجليزى بيورى أنها حدثت فى عام ٨٢٥م/ ٢١٠هـ، او عام ٨٢٦م / ٢١٠ — ٢١١هـ (٢) . وطبيعى ان ترجيح بيور ىلايصح الاخذ به ، بعدما اصبح من المسلم به ان الفتح الاسلامى لكريت تم فى يونيه عام٨٢٧ م / ربيع الاول ٢١٢ هـ(٣) .

والواقع ان المؤرخين البيزنطين لم يغفلوا تحديد تاريخ هذه الحملة فقط ، بل اغفلوا كذلك كل مايتعلق باستعداداتها، سواء عدد سفنها اونوع هذه السفن اوعدد البحارة والجنود المشتركين فيها ، وغير هذا وذاك من التفاصيل الخاصة بها . ولكن يبدوا انها كانت حملة صغيرة ذات استعدادات محدوده . والدليل على ذلك انه بعد وصول فوتيناس باسطوله بالقرب من كريت ، ادرك ان مالديه من قوات لن يتيح له سهولة غزوها ، نظرا لما تتمتع به من حماية طبيعية ، وما اضافه لها المسلمون من تحصينات منيعة . وقد اوضح ذلك كله فى تقرير رفعه الى الامبراطور ميخائيل الثانى . ولم توضح المصادر تفاصيل هذا التقرير ، اوتاريخ ارساله الى الامبراطور ، وانما اكتفت بالاشارة الى انه تضمن طلب فوتيناس امداده بقوات اضافية جديدة . وقد سارع الامبراطور بارسال تعزيزاتاليه ، وكانتهذه التعزيزات بقيادة البروسباطير داميان ، المشرف على الاصطبلات الامبراطورية Damianum

Suiequibis Conitenac وبعد وصول هذه الامدادات

---

(١) فازيلييف : العرب والروم ، ص ٦٠ .

(2) Bury : History of the Eastern Roman Empire, p. 289.

(٣) انظر الفصل الأول من هذا البحث ، ص٦٦.

تقابل الطرفان البيزنطى والكريتى فى معركة لم تمدنا المصادر بتفاصيلها ، انتهت بانتصار الفاتحين المسلمين انتصار حاسما ، وقتل داميان ، امافوتيناس فقد استطاع بمشقة ، الفرار الى جزيرة ديا Dia — الى الشمال من مدينة الخندق — ومن هناك عاد الى القسطنطينية حاملا نبأ اول هزيمة اوقعها مسلمو كريت بالقوات لبيزنطية ، فى اول محاولة لاسترداد كريت بعد فتح المسلمين لها بوقت قصير (١) .

على ان الامبراطورية البيزنطية لم تلبث ان تلقت هزيمة جديدة اشد واعنف من سابقتها ، وذلك حين ارسل الامبراطور ميخائيل حملته الثانية على كريت وكانت هذه المرة بقيادة القائد كراتيروس Duce Cratero Cibyraeotaıu praefecto حاكم ثيم كبير هايوت على الساحل الجنوبى لاسيا الصغرى — الذى يعد من اكبر الثيمات البحرية البيزنطية ،ولم ترد فى المصادر البيزنطية اية اشارة لتحديد تاريخ هذه الحملة كذلك (٢)،وقد دفع ذلك بعض المؤرخين المحدثين الى اغفال ذكر تاريخها رغم تعرضهم لها واذكر منهم على سبيل المثال المؤرخ فنلاى Finlay (٣) ، اما فازيلييف (٤) فقد اوضح ان هذه الحملة حدثت بعد الحملة الاولى بقليل اى خلال عام ٨٢٨ م . وكانت تتألف من سبعين سفينة حربية جمعت من موانى آسيا الصغرى التى اشتهرت بشجاعة بحارتها وجودة تدريباتهم . وانطلق

---

(1) Theophanes Cotinuatus, Liber 11, pp. 67—77; Zonaras, Liber XV, p. 399.

كيدرينوس ، موجز التاريخ ، ص ص ٩٣ — ٩٤ ، باليونانية .

(2) Symeon Magistri, pp. 621—623; genesius, pp. 48—49; Theophanes Continuatus, pp. 79—80; Zonaras, p. 350.

(3) Finaly, History of Greece, vol 11, pp. 136—137.

(٤) فازيلييف : العرب والروم ، ص ٦٠ .

كراتيروس بهذا الاسطول فى اتجاه كريت وتمكن من النزول على ارض الجزيرة ، ولم تحدد المصادر مكان نزول الحملة تحديدا دقيقا ، وقد اشتبك الطرفان المتصارعان فى معركة استمرت من شروق الشمس حتى غروبها . وتجمع المصادر البيزنطية على ان النصر فيها كان حليف البيزنطيين الذين استولوا على كثير من الاسلحة،ووقع كثيرمن المسلمين اسرى فى قبضتهم . وعندما هبط الظلام انسحب المسلمون الى داخل الجزيرة ، ولم يتعقبهم البيزنطيون ظنا منهم انهم انزلوا بهم هزيمة منكرة لن يقووا بعدهـا على منازلتهم . ويلقى المؤرخ البيزنطى جينيزيوس مسئولية هذا التصرف على عاتق كراتيروس ، ويصفه بالجبن والتكاسل ، ويوضح انه امر رجاله بعدم مطاردة المسلمين وتأجيل ذلك حتى صباح اليوم التالى (١) . وقضى البيزنطيون ليلتهم فى الاحتفال بهذا الانتصار ، ولم يعبأوا بتحصين معسكرهـم ، بـل تبعثروا وتباعدوا ، واسرفوا فى تناول الخمر ، ثم راحوا فى نوم عميق بفعل الشراب والاجهاد الذى لقيوه طوال اليوم . وعند منتصف الليل تقريبا عاد المسلمون بعد ان لموا شملهم ونظموا صفوفهم الى المعسكر البيزنطى ووقع كل من فيه فريسة سهلة لسيوفهم ، ويقال انهم ابادوا رجال الحملة عـن اخرهم . اما القائد كراتيروس فقد تمكن من الفرار على ظهر سفينة تجارية الى جزيرة كوس (٢) Cos ، وحين تنبه المسلمون لذلك سارعوا باللحاق به وادركوا هـناك واعادوه الى كريت حيث تـم اعدامه شنقا (٣) .

---

(1) Genesius, p. 49.

(٢) هى احدى جزر البحر الايجى ، وتقع بالقرب من الساحل الجنوبى الغربى لآسيا الصغرى ، انظر عن ذلك

Encyclopdia Britannica; vol 6, p. 482.

(2) Symeon Magistri, pp. 621—623; Genesius, pp. 48—49; Theophanes Continuatus, pp. 79—80, Zonaras, p. 350.

كيدريوس ، موجز التاريخ ، ص ص ٩٥ – ٩٦ . باليونانية .

ورغم هذه الهزائم الشديدة المتلاحقة التى منيت بها القوات البيزنطية ، الا ان ذلك لم يثن من عزم الامبراطور ميخائيل الثانى عن استرداد كريت ، فنظم حملة ثالثة ، عهد بقيادتها الى قائد يدعى اوريفاس Oryphas والمعلومات التاريخية التى وصلتنا عن هذه الحملة وقائدها ، اقل مما امدتنا به المصادر البيزنطية عن الحملتين السابقتين . ولما كان المؤرخون البيزنطيون لم يحددوا تاريخها ، فقد افترض فازيلييف (١) وقوعها فى فترة ما خلال عامى ٨٢٨ ، ٨٢٩ م (٢١٣ — ٢١٤ هـ) ، بينما افترض بيورى (٢) انها حدثت فى وقت ما خلال اعوام ٨٢٧ ، ٨٢٨ ، ٨٢٩ م . (٢١٢ — ٢١٤ هـ) ولا نستطيع ان نجزم برأى قاطع بشأن تاريخ هذه الحملة ، اذ ليس هناك ادنى دليل نستند اليه فى ذلك ، وان كنا نميل الى الاخذ بافتراض فازيلييف لانه اقرب الى تسلسل الاحداث التاريخية . وقد اجزل الامبراطور ميخائيل العطاء للمشتركين فى الحملة كوسيلة لرفع معنوياتهم التى لابد وان تكون قد تأثرت نتيجة لما اصاب الحملتين السابقتين من فشل ذريع ، فتذكر المصادر البيزنطية انه امر بصرف اربعين قطعة ذهبية لكل فرد اشترك فى هذه الحملة (٣) . وبعد وصول هذه القوات امام كريت ، وقع جزء من الاسطول فى كمين اعده المسلمون اما الجزء الباقى فقد اشترك معهم فى معركة بحرية دمر خلالها (٤) .

---

(١) فازيلييف ، العرب والروم ، ص ٦١ .

(2) Bury, op. cit., p. 290.

(٣) ونص العبارة باللغة اللاتينية هو :

«in Singulos quadraginta aureos distribuit»

وترجمتها بالعربية «وزع أربعون قطعة ذهبية على الفرد الواحد» انظر عن ذلك :

Symeon Magistri, p. 624

وقد أشار الى ذلك أيضا كيدرينوس فى كتابه موجز التاريخ ، ص ٩٧ ، باليونانية .

(4) Symeon Magistri, pp. 623—624 Genesius, p. 50; Theophanes Continuatus, p. 81,

كيدرينوس ، موجز التاريخ ، ص ٩٧ . باليونانية .

وهكذا فشلت محاولات الامبراطور ميخائيل الثانى العمورى لاسترداد كريت ، ومن اهم النتائج التى ترتبت على فشل هذه الحملات الثلاث ، تأكيد سيطرة المسلمين على كريت ، ومواصلة فتوحاتهم بها ، ثم غزوهم للسواحل والجزر البيزنصية المجاورة . ولاشك ان الهزائم المتتالية التى لقيتها القوات البيزنطية على يد الفاتحين المسلمين تدعو للتساؤل عن العوامل والاسباب الحقيقة التى ادت الى اخفاق هذه الحملات ، رغم ان الفتح الاسلامى للجزيرة كان لايزال فى مرحلته المبكرة ، ولم يكن المسلمون قد ثبتوا اقدامهم بعد فى هذه الجزيرة ، فكيف استطاعوا ان يحرزوا مثل هذه الانتصارات على البيزنطين وان يلحقوا بحملاتهم الهزيمة تلو الاخرى ؟

ان الباحث المدقق لا يخفى عليه ان من اهم العوامل التى ساعدت على احراز فاتحى كريت المسلمين هذه الانتصارات على الدولة البيزنطية ، هى الروح الحماسية للجهاد (١) فى سبيل الله ، ذلك ان الدين الاسلامى قد فرض الجهاد على المسلمين فقال الله تعالى : «كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وانتم لا تعلمون » (٢) وقد ثبتت فرضية الجهاد بالسنة عن ابى هريره رضي الله عنه قال : «سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول والذى نفسى بيده ، لولا ان رجالا من المؤمنين لا تطيب انفسهم ان يتخلفوا عنى ، ولا اجد ما احملهم عليه ، ما تخلفت عن سرية تغدوا فى سبيل الله ، والذى نفسى بيده لوددت ان اقتل فى سبيل الله ، ثم احيا ، ثم اقتل ، ثم

---

(١) الجهاد كما فسره أئمة الدين الاسلامى ، أصله لغة المشقة ، يقال جهدت جهادا ، أى بلغت المشقة ، وشرعا بذل الجهد فى قتال الكفار ، ومجاهدة الكفار تقع باليد والمال واللسان والقلب . انظر ، الشافعى : فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، ج ٦ ، ص ٢ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢١٦ .

احيا ، ثم اقتل ، ثم احيا ثم اقتل «(١) ويزخر القرآن الكريم بالآيات التى تحث المسلمين على الجهاد ، وعلى سبيل المثال قوله تعالى : «انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا باموالكم وانفسكم فى سبيل الله ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون» (٢) وهناك آيات عديدة تبين للمجاهدين ما اعده الله لهم من الثواب فى الاخرة . مثل قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله باموالكم وانفسكم ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الانهار ، ومساكن طيبة فى جنات عدن . ذلك الفوز العظيم» (٣)

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم «ان فى الجنة مائة درجة اعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله ، ما بين الدرجتين ، كما بين السماء والارض ، فاذا سألتم الله فاسألوا الفردوس ، فانه اوسط الجنه ، واعلى الجنة اراه وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر انهار الجنة .»(٤)

هذا ، وقد بين القرآن الكريم ان من يقتل اثناء جهاده فى سبيل الله يعتبر شهيدا ، يغفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ويدخله الجنة خالدا فيها فى نعيم مقيم ، قال تعالى «ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٥) .

---

(١) الشافعى : فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، ج ١ ، ص ١٢ — ١٣ .
(٢) سورة التوبة ، أية ٤١ .
(٣) سورة الصف ، الآيات ١٠ — ١٢ .
(٤) عن ابى هريرة ، أنظر ، الشافعى ، فتح البارى ، ج ٦ ص ٩ — ١٠ .
(٥) سورة آل عمران ، الآيات ١٦٩ — ١٧٠ .

ومن الاحاديث النبوية الشريفة فى هذا الصدد ، قوله صلى الله عليه وسلم : «الشهداء على بارق : نهر بباب الجنة ، فى قبة خضراء ، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيا» . (١) وقال ايضا «ما احد يدخل الجنة يحب ان يرجع الى الدنيا وله ما على الارض من شئ ، الا الشهيد ، يتمنى ان يرجع الى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة» (٢) .

لهذا كله ، فقد اصبح الجهاد فى سبيل الله ، عقيدة لها اثرها الفعال فى نفوس المسلمين ، دفعتهم الى قتال اعدائهم من الكفار لاعلاء كلمة الله ، ومن الوثائق التاريخية الهامة التى توضح مدى تمكن روح الجهاد من نفوس المسلمين ، تلك الفقرة التى وردت فى كتاب حاكم بيزنطى فى القرن السابع الميلادى ، ارسل اليه الامبراطور هرقل يوبخه لعجزه عن صد المسلمين ، فرد عليه الحاكم المسيحى قائلا : «انهم اقل منا عددا ، ولكن عربيا واحدا يعادل مائة من رجالنا ، ذلك انهم لا يطمعون فى شئ من لذات الدنيا ويكتفون بالكساء البسيط والغذاء البسيط ، هذا فى الوقت الذى يرغبون فى الاستشهاد لانه افضل طريق يوصلهم الى الجنة ، فى حين نتعلق نحن بأهداب الحياه ، ونخشى الموت ، ياسيدى الامبراطور » (٣) لذلك فان بعض المؤرخين يؤكدون ان الحماسة الدينية وحدها هى التى أدت الى نجاح المسلمين فى حركتهم التوسعية(٤) .

وهكذا يصبح من الممكن القول ان الجهاد فى سبيل الله هو احد العوامل الرئيسية التى ادت الى الانتصارات التى احرزها مسلمو كريت على الدولة

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين ، القسم الثانى الطبعة الثانية ، جـ ٣ ، ص ١١٩ .

(٢) عن أنس بن مالك ، أنظر السيرة النبوية ، جـ ٣ ص ١٢٠ .

(٣) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ١ ، الطبعة الرابعة ، ١٩٦٦ ، ص ١٤٦٥٩ .

(4) Pirenne, A History of Europe, p. 47.

البيزنطية خلال هذه المرحلة المبكرة من فتحهم للجزيرة ، خاصة اذا علمنا ان روح الجهاد قد تمكنت من نفوسهم الى درجة كبيرة . مما دفع الرحالة المعاصر ابن حوقل الى القول أنهم فى غاية الجهاد (١) .

وهناك ايضا الرغبة الاكيدة لهؤلاء الفاتحين فى المحافظة على هذا الكسب الجديد والاستماته فى الدفاع عنه . هذا الى جانب عوامل اخرى ، منها ان الفتح الاسلامى لكريت تم فى الوقت الذى خرجت فيه الامبراطورية البيزنطية من حرب اهلية انهكتها وعادت عليها بأسوأ النتائج سواء من الناحية العسكرية او من الناحية الاقتصادية (٢) ، وكانت لاتزال تخطوا الخطوات الاولى فى سبيل اعادة بناء قوتها البحرية ولم تكن قطعت شوطا كبيرا فى هذا المضمار ، حين تعرضت كريت للفتح الاسلامى ، ورغم ذلك فقد اضطر الامبراطور ميخائيل الثانى للقيام بمحاولاته هذه حرصا على استرداد كريت قبل ان يوطد المسلمون نفوذهم بها . يضاف لذلك كله أنه ، فى الوقت الذى تم فيه الفتح لاسلامى لكريت فى يونيه ٨٢٧م / ربيع الاول ٢١٢ هـ ، تعرضت جزيرة صقلية للغزو من جانب مسلمى شمال افريقية ، وبذلك فتحت جبهة ثانية للقتال امام الامبراطور ميخائيل الثانى تحتم عليه مواجهتها وكان لها اثرها الواضح فى تشتيت جهوده العسكرية وعدم تركيزها على كريت وحدها . ولذلك يجدر بنا الاشارة السريعة الى الفتح الاسلامى لصقلية ، مع بيان خطورته على الامبراطورية البيزنطية ، وماترتب عليه من نتائج ساعدت على نجاح الفتح الاسلامى لكريت، واخفاق المحاولات التى قام بها البيزنطيون فى سبيل استردادها .

---

(١) ابن حوقل : صورة الارض ، القسم الثانى ، ص ٢٠٤ .

(٢) انظر الفصل الأول من البحث ص ٧٤–٩١.

فى يونيه عام ٨٢٧ م (ربيع الاول ٢١٢هـ) ارسل امير شمال افريقيه زيادة الله ابن الاغلب (٢٠١ — ٢٢٣ هـ / ٨١٧ — ٨٣٨ هـ) حملة بقيادة اسد بن الفرات(١) لغزو صقلية . وقد نزلت الحملة بمدينة مازر — الى الجنوب على الساحل الغربى لجزيرة صقلية — فاستولى المسلمون عليها(٢) . ثم اتخذا الجيش الاسلامى طريقة الى مدينة سرقوسه — على الساحل الشرقى لجزيرة صقلية — وافتتح المسلمون حولها مواقع عديدة، ثم حاصروها برا وبحرا . وفى تلك الاثناء وصلت للمسلمين الامدادات العسكرية من افريقيه والاندلس وكريت ، فى الوقت الذى ارسل فيه الامبراطور ميخائيل الثانى اسطولا كبيرا الى صقليه ، كما اقنع دوق البندقية المستقل جستنيانوس Justinianus ان يرسل الى صقلية اسطولا للتعاون مع القوات البيزنطية فى انقاذ سرقوسه . وبعد ان اجتمع الاسطول البيزنطى بأسطول البندقية ، نشبت المعركة بين الاسطولين المتحالفين والقوات الاسلامية تحت اسوار سرقوسه ، حقق فيها المسلمون انتصارا كبيرا وواصلوا حصارهم للمدينة (٣) . ولكن المعسكر الاسلامى المرابط امام سرقوسه تعرض لوباء

---

(١) هو ابو عبد الله أسد بن الفرات بن سنان ، أصله من نيسابور بخراسان ، وولد بمدينة حران سنة ١٤٢ هـ (بدأت فى ٤ مايو ٧٥٩ م) ويستطرد المؤرخ المالكى فى ترجمته لحياة أسد بن الفرات قائلا : «ثم ولاه زيادة الله ابن ابراهيم ابن الأغلب قضاء افريقية سنة ثلاث ومائتين (٨١٨ — ٨١٩ م) فأقام قاضيا عليها يقضى بين أهلها بالكتاب والسنة حى خرج لغزو صقلية فجاهد بها الروم وقاتلهم قتالا عظيما ، وكانت له آثار مشهورة ومقامات مذكورة وافتتح منها مواضع كثيرة ، ثم توفى رحمه الله تعالى من جراحات اصابته وهو محاصر لموضع» . انظر المالكى : رياض النفوس ، ص ١٧٢ — ١٧٣ .

(٢) المالكى : رياض النفوس ، ص ١٨٨ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ١٨٨ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ١٠٢ — ١٠٣ ، ابن الاثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ١٨٧ ، راجع كذلك فازيلييف : العرب والروم ، ص ٧٨ .

الطاعون الذى تفشى بين الجنود بشكل خطير ، وادى الى وفاة اعداد كبيرة منهم ، كان من بينهم اسد بن الفرات نفسه وذلك فى ١٣ رجب ٢١٣ هـ / أكتوبر ٨٢٨ م . فاختار الجنود خليفة له محمد بن ابى الجوارى ، وفى ذلك الوقت جاءت امدادات جديدة من القسطنطينية والبندقية لانقاذ سرقوسه ، فتحرج موقف المسلمين وارادوا رفع الحصار ، فأصلحوا سفنهم وتهيأوا للخروج ، ولكنهم ادركوا استحالة ذلك لوجود اسطول البيزنطيين والبنادقة امام مخرج ميناء سرقوسه ، فاشعل المسلمون النيران فى سفنهم حتى لاتقع فى ايدى الاعداء ، وتوغلوا فى داخل البلاد ، واتجهوا نحو الشمال الغربى لصقلية ، وحاصروا ميناو ، وبعد ثلاثة ايام استسلمت لهم ، ثم ملكوا مدينة جرجنت (كبر كنت) (١) .

وقد رفعت هذه الانتصارت من معنويات المسلمين ، وخفت حـــدة الوباء ، ثم ساروا الى مدينة قصريانه(٢) .

---

(١) تعتبر مدينة جرجنت من المدن العريقة بصقلية ، وامتازت بحسن التنسيق وإزدهارها الحركة التجارية بها ، ومما جاء فى وصف الادريسى لها قوله : «وجرجنت مدينة متحضرة من أشرف الحواضر ، عامرة بالوارد والصادر ، وقلعتها حصينة سامية ومدينتها زاهية قديمة العمران ، مشهورة فى جميع البلدان ، بل هى من أعظم الحصون منعة ، وأجل البلاد رقعة ، يسعى اليها من سايرالآفاق ، وتجتمع بها السفن والرفاق ، ديارها سامية فى الدبار ، ومحلاتها تفتن الأنظار ، وبها أسواق جامعة لأصناف الصنائع ، وضروب المتاجر والمبايع ، وبها حدائق وجنات رايقة ، وأصناف كثيرة من الثمرات أزلية أدلية ، تدل آثارها على سلطنة علية ، ويحمل على كل ما وصل اليها من عظام السفن وما يتجاوز أوساقها فى الأيام القلائل ... وبها جنات وفلات مشهورات ، وهى على ثلاث أميال من البحر .» انظر : الادريسى : نزهة المشتاق ، ص ٢١ – ٣٢ .

(٢) ذكرها الادريسى بأسم قصريانى ، ووصفها بقوله : «هى مدينة جليلة فى أعلى جبل ذات حصن حصين ومعقل متين ، قطرها واسع وفناؤها شاسع ، ولها أسواق حميلة الترتيب ، وديار متقنة التركيب ، وصنائع وبضائع ، وصناع ومتاجر وأمتاع . ولها عمل واسع المجال وأقاليم واسعة الحال ، مزارعها زعية ، وغلاتها مرضية ، وهواها بارد ، ومرافقها تشفى الصادر والوارد ، وبالجملة أنها امتع بلاد الله مكانا ، وأوثقها بنيانا ، ولها مع حصانتها فى جبلها مزارع ومياه جارية .» انظر : الادريسى : نزهة المشتاق ، ص ٤٢ – ٤٣ .

واثناء حصار المسلمين لقصريانه ، ارسل الامبراطور ميخائيل الثانى حملة كبيرة على صقلية ، لوقف الزحف الاسلامى بها ، والعمل على اجلاء المسلمين عما افتتحوه من بلاد . وكانت هذه الحملة بقيادة احد القادة الممتازين فى الامبراطورية البيزنطية ويدعى تيودوت Theodotus ، وقد نازل هذا القائد المسلمين تحت اسوار قصريانه ولكنه هزم ، وقتل المسلمون اعداد كبيرة من جيشه ، كما اسروا اعدادا اخرى ، كان من بينهم تسعون بطريقا اما تيودوت فقد لجأ بمن تبقى معه الى داخل قصريانه . واستمر المسلمون محاصرين للمدينة ووقع بينهم وبين البيزنطيين عدة اشتباكات تبادل فيها الطرفان النصر والهزيمة . وعلى اثر احدى الهزائم التى الحقها تيودوت بالمسلمين ، انسحبوا الى ميناو ، فتبعهم اليها وحاصرهم بها . وحين علمت الحامية الموجودة بمدينة جرجنت بما حدث لاخوانهم المحاصرين بميناو ، قامت بتخريب جرجنت وسارعت بالخروج منها لاغاثتهم ، ولما ادركت استحالة ذلك ، انسحبت الى مدينة مازر . وفى عام ٢١٤ هـ وصلت الى المسلمين بصقلية امدادات كثيرة من افريقية والاندلس ، بلغت ثلاثمائة سفينة محملة بالرجال ، فتقووا بها واضطر تيودوت الى الانسحاب من امام ميناو (١) . وفى ذلك الوقت من خريف عام ٨٢٩ م ، توفى الامبراطور ميخائيل الثانى (اكتوبر ٨٢٩ / شعبان ٢١٤ هـ) (٣) ، وبوفاته وضعت

---

(١) ابن خلدون : أخبار دولة بنى الاغلب ، ص ٤٣ – ٤٤ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ١٨٧ – ١٨٨ ، راجع كذلك ، فازيلييف : العرب والروم ، ص ٨٣ – ٨٤ .

(٢) والجدير بالذكر أن الصراع استمر قائما أمدا طويلا ، بين خلفاء هذا الامبراطور والمسلمين فى صقلية ، وقد أخذ المسلمون يواصلون فتوحاتهم بها حتى أجلوا البيزنطيين عنها . انظر : ابن خلدون : أخبار دولة بنى الاغلب ، ص ٤٥ وما بعدها ، ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ج ٥ ، ص ١٨٨ وما بعدها . راجع أيضا ، بيورى : تاريخ الامبراطورية الرومانية الشرقية ، ص ٣٠٤ وما بعدها ، فنلاى : تاريخ اليونان ، ج ٢ ، ص ١٣٨ وما بعدها

الخاتمة لحياة هذا الامبراطور الذى شاهد عصره انهيار سيطرة بيزنطة فى البحر المتوسط ، والبحر الادريانى نتيجة للغزو الاسلامى لجزيرتى كريت وصقلية ، وان كان هو لم يدخر جهدا فى سبيل استخلاصهما من قبضة المسلمين .

على ان السياسة النشطة التى انتهجها ميخائيل الثانى والخاصة بمحاولاته المستمرة لاسترداد كريت ، لم تلبث ان اصيبت بنكسة فى عصر خليفته ثيوفيل (١) (٨٢٩ — ٨٤٢) ، اذا لم يرد فى المصادر المعاصره او المتأخره أية اشارة لأية حملة ارسلها ضد كريت ، هذا رغم الغارات العنيفة التى قام بها مسلمو كريت على الممتلكات البيزنطية ، وبخاصه فى الايام الاولى من عصر هذا الامبراطور . فبمجرد ان تولى ثيوفيل العرش فى اكتوبر ٨٢٩ م (شعبان ٢١٤ هـ) خرجت من كريت حملة بحرية قدر المؤرخ البيزنطى موناخوس عدد سفنها بخمسين سفينة حربية ، حيث هاجمت شواطئ أيونيا Ion'a ، وكاريا Caira — على الساحل الجنوبى الغربى لاسيـــا الصغرى كما هاجمت اديرة الرهبان فى جبل اتوس

---

(١) امتاز الامبراطور ثيوفيل بسعة الأفق وشدة اهتمامه بالعلوم والفنون البيزنطية والاسلامية على السواء ، كما كان من أشد المناهضين لعبادة الصور المقدسة ، وقد شهد عصره الموجه الأخيرة للحركة اللا ايقونية . ومن الأمور المشهورة عن هذا الامبراطور حرصه على نشر العدل فى أرجاء الامبراطورية ، فأخذ فى تقليد الخليفة العباسى هارون الرشيد فيما اشتهر به من العدالة ، فيقال انه كان يطوف بأنحاء عاصمته القسطنطينية ليلا ، ويتحدث إلى الفقراء والمساكين ويستمع إلى شكواهم ، وينزل أشد العقاب بمن أوقع بهم الظلم من الموظفين مهما ارتقت مكانتهم ومن الخصائص المميزة لعصره ، حروبه مع المسلمين على الجبهة الشرقية للامبراطورية البيزنطية انظر عن ذلك :

Bury, op. cit., pp. 121—122; Ostrogorsky, History of the Byzantine State, pp. 183—184.

راجع كذلك ، نبيه عاقل : الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٩٤ .

Atus (١) ، وقد ترتب على هذه الهجمات ان هجر الرهبان صوامعهم وفروا طالبين السلامة لأنفسهم (٢) . وفى نفس عام ٨٢٩ م / ٢١٤ هـ ، ابحر اسطول من كريت ، وهاجم سواحل تراقيا ، واستولى المسلمون منها على غنائم وفيرة ،وعلى العديد من الاسرى. وفى طريق عودتهم فاجأهم حاكم ولاية تراقيا ويدعى قسطنطين كونتوميتس Constantinus Contomytes ، واشتبك معهم فى معركة بحرية ، لم تحدد المصادر مكانها على وجه الدقة ، وكما يذكر صاحب صلة ثيوفان ، فان الاسطول الكريتى دمر تماما وابيد من فيه من المسلمين (٣) . ولكن البيزنطيين لم يهنأوا بهذا الانتصار طويلا ، اذ بعد وقت قصير من المعركة ، واثناء احدى غارات الكريتيين على جزر السيكلاديز (٤) ، تقابل الاسطول الكريتى فى طريق العودة ، مع اسطول بيزنطى عند جزيرة تاسوس Thasos — احدى

---

(١) يقع جبل آتوس فى شبه جزيرة خلقيديه ، ويبلغ ارتفاعه نحو ستة آلاف وثلاثمائة قدم . وكان المسيحيون يعتبرونه أثرا دينيا وبنوافيه الكثير من الكنائس والأديرة ، ومن أشهرها دير لور Laure ، الذى أسسه القديس اثناسيوس فى القرن العاشر الميلادى . انظر : الخانجى : منجم العمران فى المستدرك على معجم البلدان ، ج ٩ ، ص ١٨ راجع أيضا :

Ostrogorsky, op. cit., p. 253.

(2) Monachus, op. cit., pp. 791—792; Theophanes Continuatus, p. 137.

(3) Theophanes Continuatus, P 137.

(٤) تقع جزر السيكلاديز فى الطرف الجنوبى الغربى للبحر الايجى ، وهى تشمل الجزر التالية : لمنوس Lemous ، سكيروس Scyrus ، ميلوس Melus ، امولجوس Amolgus ، ثيرا Thera ، ثيراسيا Therasia ، ربنيا Rhenea ، ديلوس Delus ناكوس Naxus . انظر .

Constantin Porphyrogenetus, De Thematibus, Liber 1, p. 43.

جزر البحر الايجى — واوقع المسلمون بالاسطول البيزنطى هزيمة مروعة وانزلوا به التدمير (١).

ورغم هذه الغارات التى قام بها مسلمو كريت على الممتلكات البيزنطية الا ان الامبراطور ثيوفيل لم يبذل أية محاولة عسكرية بقصد استرداد كريت وامتدادا لسياسة والده ميخائيل الثانى فى هذا الشأن والباحث فى هذا الموضوع يدرك ان السبب فى ذلك يرجع الى انشغاله بالحروب مع المسلمين على الجبهة الشرقية للامبراطورية ، تلك الحروب التى استحوذت على جانب كبير من اهتمامه ونشاطه العسكرى طوال عهده . لذلك فمن الضرورى الاشارة الى هذه الحروب لبيان الاسباب التى أدت الى انصراف ثيوفيل عن محاولة استرداد كريت . واستكمالا للنظرة الموضوعية الشامله لمسرح الاحداث وقتذاك .

لقد استغل الامبراطور ثيوفيل الظروف العصيبة التى كانت تمر بها الدولة العباسية وقتذاك والخاصة بفتنة بابك ، ومحاولات الاستقلال من جانب ولاة مصر . واشعل الحرب معها محاولا كسب فتوحات بيزنطية فى المشرق الاسلامى . لكن هذه الحروب تطورت بشكل ادى الى تفوق العباسيين واحرازهم العديد من الانتصارات التى كللت بفتح مدينة عمورية .

وقد بدأ الامبراطور ثيوفيل حربه مع العباسيين فى ربيع عام ٨٣٠ م / ٢١٥ هـ ، فنزل على مدينة زبطره (٢) ، واستولى عليها ، وانزل بها الخراب والدمار ، وقتل اعدادا كبيرة من سكانها . وما كاد الخليفة المأمون

---

(1) Theophames Continuatus, p. 137.

(٢) تقع مدينة زبطرة فى أقليم أعالى الجزيرة ، بين مدينتى ملطية وسميساط . أنظر ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٧ ، ص ٣٧٤ .

يعلم بنبأ هذه الغارة حتى صمم على الثأر ، فخرج من بغداد يوم السبت ٢٧ المحرم ٢١٥ هـ (٢٦ مارس ٨٣٠ م) ، ووصل الى مدينة الموصل — فى اعالى الجزيرة — ثم نزل الى شمال الشام ومر بمدن منبج ودابق وانطاكية ، التى رحل منها الى المصيصة ثم الى طرسوس ، وخرج منها فى ١٥ جمادى اولى ٢١٥ هـ (يوليه ٨٣٠ م) غازيا فى الممتلكات البيزنطية فى قبادوقيا . ففتح حصون بها مثل حصنى ماجده وقرة ، ونجح بعض قادته فى فتح حصنى سندس وسنان . ثم عاد الخليفة الى بلاده بعد ان انتقم لما انزله الامبراطور ثيوفيل من تخريب بمدينة زبطره (١) .

وفى العام التالى (٢١٦ هـ / ٨٣١ م) قام الامبراطور ثيوفيل بغارة على مدينتى المصيصة وطرسوس ، وقتل من اهليهما الفا وستمائة نفس ، فخرج المأمون فى ١٩ جمادى الاول ٢١٦ هـ (٢ يوليه ٨٣١ م) للرد على هذا الهجوم وحين وصل الى مدينة أدنه — فى اقليم قيليقية — جاءته رسل ثيوفيل تعرض عليه ان تعقد بينهما الهدنة لمدة خمس سنوات مقابل ان يدفع له الامبراطور مائة الف دينار (٢) ، وان يطلق سراح الاسرى المسلمين الموجودون بالبلاد البيزنطية على ان يرد اليه الخليفة المأمون ما أفتتحه من المدن والحصون البيزنطية (٣) .

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ١٠ ، ص ٢٨٠ .

(٢) الدينار عملة ذهبية استخدمها المسلمون ، وهو يساوى عشرون قيراطا من الذهب . وكان ببغداد نوعين من الدنانير ، أحدهما يسمى «العوال» ويساوى أثنا عشر درهما ، والآخر يدعى «المرسل» ، ويساوى عشرة دراهم ، وكان الأخير أكثر شيوعا واستخداما فى بغداد ، واستعمله الأهالى فى أغلب مبايعاتهم ومعاملات تجارهم . انظر ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ، ص ٤٢٢ .

(٣) اليعقوبى : التاريخ ، جـ ٢ ، ص ١٩٢ ، الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ١٠ ، ص ٢٨٣ .

لكن الخليفة المأمون رفض قبول هذا العرض ، وتقدم الى مدينة هرقلة (١) ، التى استسلمت له دون قتال ، ووجه اخاه ابا اسحاق (٢) ، فافتتح ثلاثين حصنا بيزنطيا لم تذكر المصادر اسماءها ، كما استطاع احد قادته ويدعى يحى بن اكثم ان يغير على مواقع عديدة للبيزنطيين «فأغار وقتل وحرق واصاب سبيا ورجع الى العسكر» (٣) . وبعد ذلك رحل الخليفة المأمون بجيشه الى دمشق ، ومنها الى مصر ليقضى على فتنة نشبت بها ، وظل بمصر من فبراير الى ابريل ٨٣٢ م ، ثم عاد لاستئناف القتال مع البيزنطيين وكان هدفه هذه المرة قلعة لؤلؤه التى تشرف على درب قيليقية وتتحكم فيه ، ونزل عليها محاصرا ، واستمر محاصرا لها لمدة مائة يوم دون جدوى . فرحل عنها وترك امامها قائده عجيف وامره بالاستمرار فى الحصار حتى تسقط المدينة ، ولكن الاهالى احتالوا على هذا القائد حتى اسروه ، فى الوقت الذى خرج فيه الامبراطور ثيوفيل فاحدق بالجيش الاسلامى المرابط امام القلعة ، ولما علم الخليفة بذلك ارسل قواته لمنازلة الامبراطور ، الذى فضل ان يرحل قبل وصول هذه القوات ، وحين علم اهالى لؤلؤه برحيل الامبراطور اطلقوا سرا حرعجيبا وسلموا له القلعة (٤) .

عزم الخليفة المأمون على فتح مدينة عمورية ، والمعروف ان هذه المدينة تقع فى وسط آسيا الصغرى ، وكان الاستيلاء عليها يعتبر خطوة فى سبيل

---

(١) تقع مدينة هرقلة فى أقليم قيليقية ، ووصفها القلقشندى بقوله : «وهى فى شرق نهر ينزل من جبل العلايا إلى نحو سنوب ، وهرقلة عليه فى غرب البحر ، وفى شرقها جبل الكهف» انظر القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٥٠ .

(٢) هو الذى تولى الخلافة بعد المأمون وعرف بأسم المعتصم بالله ابو اسحق محمد بن الرشيد ، انظر السيوطى : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ، ص ١٣٣ .

(٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ١٠ ، ص ٢٨٣ .

(٤) الطبرى : نفس المصدر ، ج ١٠ ، ص ٢٨٣ .

الوصول الى القسطنطينية ذاتها (١) . كما انها تعتبر من امنع وأحصن البلاد البيزنطية ، ويذكر المؤرخ الطبرى ان عمورية «هى عين النصرانية وهى اشرف عندهم من القسطنطينية» (٢) يضاف لذلك ان هذه المدينة هى مسقط رأس الاسرة العمورية الحاكمة التى ينتمى اليها الامبراطور ثيوفيل ، وكان استيلاء المسلمين عليها يعد ضربة قاصمة تذل الامبراطور وتقضى على هيبته وقد اخذ المأمون فى الاستعداد لحملته على عمورية . وحين علم ثيوفيل بذلك بعث اليه برسالة عاود فيها طلب الهدنة الذى سبق ان تقدم بها فى عام ٢١٦ هـ (٨٣١ م) (٣) .لكن رد الخليفة المأمون (٤) عليه كان مليئا بالوعيد والتهديد واشترط لقبول الهدنة ، اعتناق الامبراطور وشعبه للدين الاسلامى الحنيف او دفع الجزية السنوية للخليفة العباسى ، شأنه فى ذلك شأن اهل الذمة من المسيحيين واليهود الموجودين بالبلاد الخاضعة لسلطة الخليفة المسلم . وفى حالة قبول الامبراطور لهذا الشرط يكون ذلك بطبيعة الحال اعتراف ضمنى منه بالمأمون كسيد اعلى له .

ويبدو ان الامبراطور ثيوفيل رفض شروط الخليفة المأمون ، الذى واصل استعداداته العسكرية الخاصة بحملته على عمورية ، وخرج على رأس جيوشه فى عام ٢١٨ هـ (٨٣٣ م) متخذا طريقه فى آسيا الصغرى . وحين وصل الى موضع يسمى البذندون بين لؤلؤه وطرسوس . حلت به حمى

---

(1) Bury, op. cit., p. 262.

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ١٠ ، ص ٣٣٥ .

(٣) انظر نص خطاب الامبراطور ثيوفيل إلى الخليفة المأمون فى المصدر التالى .
الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ١٠ ، ص ٢٨٣ .

(٤) انظر نص رسالة الأمبراطور ثيوفيل إلى الخليفة المأمون ، ورد المأمون عليها فى الملحق رقم ١

شديدة أدت الى وفاته فى ١٣ رجب ٢١٨ هـ (٧ اغسطس ٨٣٣ م) (١) . وهكذا لم يمتد الاجل بالخليفة المأمون ليتم هذا المشروع الذى بدأه ، فتوفى تاركا لخليفته المعتصم (رجب ٢١٨ هـ – ربيع الاول ٢٢٧ هـ / اغسطس ٨٣٣–يناير ٨٤٢ م)(٢) مهمة تحقيق هذا النصر الخاص بفتح مدينة عمورية.

وترجع اسباب هذا الفتح الى ان بابك الخرمى حين شعر بالتضيق عليه من جانب الافشين قائد الخليفة المعتصم ، ووجد انه اضعف من ان يقف فى وجهه « كتب الى ملك الروم ثيوفيل بن ميخائيل بن جورجس يعلمه ان ملك العرب قد وجه عساكره ومقاتليه اليه ، حتى وجه خياطه يعنى جعفر بن دينار وطباخه يعنى ايتاخ ، ولم يبق احد على بابه ، فان اردت الخروج اليه ، فاعلم انه ليس فى وجهك احد يمنعك»(٣) وكان بابك يرمى من وراء ذلك بطبيعة الحال ، ان يفتح الامبراطور ثيوفيل جبهة قتال ثانية امام العباسيين . يكون لها اثرها فى تشتيت جهودهم العسكرية ، وبالتالى تخف وطأة قتالهم له . وقد استجاب له الامبراطور ، وقام فى عام ٢٢٣ هـ(ديسمبر ٨٣٧ – نوفمبر ٨٣٨ م) بهجوم كبير على مدينة زبطره فخربها وأسر كثيرا من اهلها ، ثم نزل على ملطية ، فأغار عليها وعلى بعض الحصون الاسلامية المجاورة لها ، وقد مثل الامبراطور بمن وقع فى يده من الاسرى ، فأمر بسمل عيونهم وقطع أذانهم وانوفهم(٤)

---

(١) اليعقوبى : التاريخ ، جـ ٢ ، ص ١٩٦ ، الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ١٠ ، ص ٢٩٣ .

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ، ص ١٣٣ .

(٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ١٠ ، ص ٣٣٤ .

(٤) تقع مدينة ملطية فى أقليم الجزيرة إلى الشمال من مدينة حلب فى شمال الشام، وهى تمتاز بموقعها الاستراتيجى الهام عند أحد الممرات المؤدية من أراضى الدولة البيزنطية إلى أقليم الجزيرة،=

وحين وصلت أنباء هذه الغارة الى الخليفة المعتصم ، وان امرأة هاشمية صاحت وهى فى ايدى البيزنطيين «وامعتصماه». استعظم ذلك وصمم على الثأر ، وبعد أن انتهى من القضاء على بابك الخرمى فى عام ٢٢٣ هـ (٨٣٨م) اخذ يستعد لتنفيذ مشروع الخليفة المأمون ، الخاص بفتح مدينة عمورية . وفى يوم الخميس ٦ جمادى الاول ٢٢٣هـ (اول ابريل ٨٣٨م) ، غادر المعتصم عاصمته سامراء على رأس جيش كبير ، قدره المؤرخ المسعودى مابين المائتـــى والخمسمائة الف (١)، وتشير المصادر البيزنطية التى عرضت لهذه الحملة(٢) الى ان المعتصم امر ان يكتب على الالوية والتروس اسم عمورية التى اتخذ الجيش طريقه اليها،وتوقف هذا الجيش على نهر اللامس(٣) وقرر المعتصم ان يغزو البلاد البيزنطية من عدة جهات ، فأرسل جزءا من الجيش على رأسه القائد الافشين نحو مدينة سروج . وامره ان يدخل من ناحيتها الى الاراضى البيزنطية عن طريق درب الحدث . كما ارسل جزءاً أخرا من الجيش بقيادة القائد اشناس وكان عليه ان يدخل الى مدينة الصفصاف عن طريق درب طرسوس وحدد الخليفة للقائدين يوما معينا يجمعان فيه مع

= وجاء فى وصفها أنها «بلدة ذات أشجار وفواكه وأنهار وهى مسورة ، ولها قنى تدخلها وتجرى فى دورها ، إلا أنها شديدة البرد» . انظر ، ابن حوقل ، صورة الأرض ، ج ١ ، ص ٢٠٨ ، القلقشندى صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٣١ .

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ١٠ ، ص ٣٣٤ ، المسعودى ، التنبيه والاشراف ، ص ١٦٩ ، ابو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر ، ج ٢ ، ص ٣٦ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ٦ ، ص ١٩٥ .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج ٢ ، ص ٢٧٦ .

(٣) يقع نهر اللامس فى سلوقيه وبينه وبين طرسوس مسيرة يوم واحد ، انظر ، الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ١٠ ، ص ٣٣٥ .

باقى الجيش امام مدينة انقره(١)، التى سار اليها الخليفة مع باقى قواته(٢) ولما وصلت انباء هذه الحملة الى الامبراطور ثيوفيل ، خرج من القسطنطينية على رأس جيشه لمنازلة المسلمين ، وتوقف عند دور يليوم Dorylaiom (٣) وهناك وصلته الانباء عن ضخامة الجيش الاسلامى وعظم استعداداته ، وقد دفع ذلك فريقا من القادة البيزنطيين الى نصحه باخلاء عمورية من سكانها صونا للدم المسيحى ، ولكن الامبراطور رفض الاستماع لهذه النصيحة ، وفضل ان يزيد من تحصينات عمورية ، وان يعهد بالدفاع عنها الى قائد قدير يدعى ايتيوس Aetius وهو المعروف لدى المؤرخين المسلمين باسم ياطس (٤) وكان يشغل وقتذاك منصب حاكم ثيم الاناضول . كما ارسل الامبراطور الى عموريه تعزيزات ضخمة بقيادة تيودور كراتيروس Theodore Krateros ، وقسطنطين بايوتريكوس Constantin Baiotrikos (٥)

اما الامبراطور ثيوفيل فقد عسكر وراء نهر الهليس منتظرا مرور الخليفه المعتصم بجيشه لينقض عليهم ، ، وظل معسكرا فى هذا الموضع ما يقرب من الشهر ، وحين بلغه ان جيش الافشين دخل الى الاراضى البيزنطية من

---

(١) تقع مدينة انقرة فى وسط آسيا الصغرى ، ويذكر القلقشندى أنها «بلدة لها قلعة على تل عال وهى بين الجبال ، وليس بها بساتين ولا ماء ، يشرب أهلها من الآبار» . انظر ، القلقشندى صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٥٤ .

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ١٠ ، ص ٣٣٥ ، المسعودى : مروج الذهب ، ج ٢ ص ٢٧٦ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ٦ ، ص ١٩٦ .

(٣) دوريليوم هى احدى المدن بآسيا الصغرى ، وتقع إلى الغرب من مدينة عمورية وبينهما مسيرة ثلاثة أيام ، انظر ، فازيلييف : العرب والروم ، ص ١٣٢ .

(٤) اليعقوبى : التاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ ، الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ١٠ ، ص ٣٣٩ .

(5) Monachus, p. 805; Theophanes Continuatus, p. 26; Symeon Magistri, pp. 638—639; Zonaras, p. 416.

ناحية ثم الارمنياق ، ذهب على رأس قواته لمنازلته ، والتقى الطرفان فى معركة صباح يوم الخميس ٢٥ شعبان ٢٢٣ هـ (٢٢ يوليه ٨٣٨ م) عند مدينة دازيمون Damo i (١) ، واحرز البيزنطيون الانتصار فى بادئ الامر ، ولكن الموقف تغير عند الظهر حين وصل الفرسان المسلمون فانقضوا بشدة على قوات الامبراطور وشتتوها فلاذ معظمها بالفرار . وتتفق المصادر العربية (٢) والبيزنطية على ان الامبراطور نفسه لم ينج الا بصعوبه ، ونذكر على سبيل المثال قول الماجستر سيميون : «وانشب الامبراطور القتال ، فانهزم وهرب وعاد بالخزى ولم ينج الا بصعوبة»(٣) .

وبعد هذه الهزيمة عاد الامبراطور الى معسكره السابق عند نهر الهليس حيث اجتمع بفلول جيشه ، وارسل الى المدن والحصون يأمر من بها بالقبض على الجنود الهاربين وجلدهم وارسالهم لحرب المسلمين ، اما هو فاتخذ طريقه الى مدينة نيقية ومنها الى دوريليوم ، وأقام هناك فى انتظار ما سوف يحل بعمورية على يد الخليفة المعتصم (٤) . اما الافشين فبعد انتصاره على الامبراطور ، واصل طريقه الى انقره ، وامامها اجتمع بجيش الخليفة المعتصم وجيش اشناس ودخل الجميع الى مدينة انقرة ، التى هجرها اهلها ، فاستولى

---

(١) تعرف حاليا بأسم توكات ، انظر فازيلييف ، العرب والروم ، ص ٢٠٣ . ،

(٢) انظر على سبيل المثال الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ١٠ ، ص ٣٣٧ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ص ١٩٧ – ١٩٨ ، المسعودى : مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٢٧٦

(3) Symeon Magistii, p. 638.

انظر كذلك :

Monachus, p. 803; Genesius, p. 68; Theophanes Continuatus, p. 127.

(4) Genesius, pp. 68—69; Theophanes Continuatus, pp. 128—129; Zonaras, pp. 416—417.

انظر كذلك ، الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ١٠ ، ص ٣٣٧ – ٣٣٨ .

عليها المسلمون وخربوها (١) . وقد كان لتخريب هذه المدينة وللهزيمة التى لقيتها القوات البيزنطية على يد اشناس ، اسوأ الاثر فى نفس الامبراطور ثيوفيل ، فقام بآخر محاولة لانقاذ مدينة عمورية من مصيرها المحتوم ، وتذكرا المصادر العربية والبيزنطية على السواء ، ان الامبراطور ثيوفيل ارسل الى الخليفة المعتصم سفاره اوضحت له ان قادة الجيش البيزنطى قد تجاوزو اوامره اثناء حملته على زبطرة عام ٨٣٧ م (٢٢٣ هـ) ، وان الامبراطور يعد بتسليم كل من قام بعمل تخريبى ضد هذه المدينة ، كما أوضحت هذه السفارة استعداد الامبراطور لاعادة بناء زبطره على نفقة الخاصة وأن يعيد اليه جميع من اسرهم منها مضافا اليهم جميع الاسرى المسلمين الموجودين بالبلاد البيزنطية (٢) . لكن الخليفة المعتصم لم يستمع الى هذه الوعود المذله وسخر من رسل الامبراطور واتهم البيزنطيين بالجبن واحتجز الرسل(٣)

اتخذ الجيش الاسلامى بعد ذلك طريقه الى عمورية ، ووصل امامها يوم الجمعة ٦ رمضان ٢٢٣هـ (اول اغسطس ٨٣٩م)(٤)، وعلى الفور بدأ المسلمون الحصار ، وقد هاجموا السور – الذى كان على جانب كبير من الحصانه وكان يشتمل على ٤٤ برجا – هجمات متتالية بشجاعة ومثابرة ، غير ان هجومهم لم يكلل بالنجاح نظرا لاستماتة اهل عمورية فى الدفاع عنها

---

(١) الطبرى : نفس المصدر ، جـ ١٠ ، ص ٣٣٨ .

(٢) قال المؤرخ اليعقوبى عند تعرضه لهذه السفارة : «فأوفد طاغية الروم من قبله وفد إلى المعتصم يقول أن الذين فعلوا بزبطرة ما فعلوا تعدوا أمرى وأنا ابنيها بمالى ورجالى وأرد من أخذ من أهلها واخلى جملة من فى بلد الروم من الاسارى وأبعث اليك بالقوم الذين فعلوا بزبطرة على رقاب البطارقة» . انظر اليعقوبى : التاريخ ، جـ ٢ ص ص ٢٠٢ – ٢٠٣ .

(٣) وقد سيرهم الخليفة إلى بلدهم بعد فتحه مدينة عمورية ، أنظر عن ذلك المصادر التالية :-
Genesius, op. cit., pp. 64--65; Theophanes Continuatus, pp. 129—130

(٤) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ١٠ ، ص ٣٤٣ .

ويذكر الماجستر سيميون فى هذا العدد «وصل أمير المؤمنين بقوة كبيرة ، وحاصر عمورية وشن عليها هجمات كثيرة ، فلم يقو على تخريبها ، لان اهلها حاربوا فى كرامةوثبات».(١)اما كيدرينوس فيقول«وهاجم السراقنه(٢) المدافعين عـــن اسوار المدينة ، ولكن الروم الذين كانوا فيها كانوا معتزين بقوتهم يحاربون بشجاعة ويردون عن مدينتهم آلات الحصار»(٣). ونستكمل الوصف من صاحب صلة ثيوفان الذى يقول : « ومات من الطرفين رجال كثيرون من المحصورين والمحاصرين ،ولم ينل المسلمون شيئا زمنا طويلا ، واحسوا بفداحة الخطر لقتل الكثيرين منهم . ويستطرد قائلا ان عدد القتلى من الجانبين بلغ سبعين الفا»(٤) وهذا الرقم وان كان مبالغا فيه الا انه يدل على مدى الخسارة فى الارواح التى لحقت بالطرفين .

وقد انتهى حصار المسلمين لعمورية باستسلام المدينة فى اغسطس ٨٣٩م (١٨ رمضان ٢٢٣ هـ) ، فاستباحها المسلمون ووقعت بين ايديهم اعداد كبيرة من السبايا والاسرى، كان من بينهم عدد كبير من البطارقة واهل الشرف ، وامر الخليفة المعتصم بهدم اسوار عمورية وابوابها ، ثم انصرف عائدا الى بلاده(٥) .

---

(١) Symeon Magistri, op. cit., p. 638.

ويذكر المؤرخ موناخوس نفس المعنى ، أنظر :

Monachus, op. cit., p. 806.

(٢) الأصل اليونانى للكلمة كما ذكرها كيدرينوس هى (ساراقينوس) ومعناها بالعربية «عبيد سارة» . وهى احدى التسميات التى أطلقها البيزنطيون على المسلمين ، ويفسر المؤرخ المسعودى أصل هذه التسمية بأنها طعنا من الروم على السيدة هاجر وأبنها اسماعيل ، حيث أنها كانت أمة للسيدة سارة انظر المسعودى : التنبيه والاشراف ، ص ١٦٨ .

(٣) كيدرينوس ، ص ١٣٥ باليونانية .

(4) Theophanes Continuatus, p. 130.

(٥) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ١٠ ، ص ٣٤٢ . انظر كذلك المصادر البيزنطية التالية :=

وتشير المصادر البيزنطية الى سفارة ارسلها الامبراطور ثيوفيل الى الخليفة المعتصم بعد فتح عمورية ، عرض فيها ان يدفع للخليفة مائتى قنطار ذهبا فداء لاسرى عمورية ، وعلى الاخص بعض اتباعه المقربين ؛ لكن الخليفة رفض هذا العرض موضحا ان نفقات الجيش فقط فى حملته على عمورية بلغت الف قنطار من الذهب(١) .

كان ذلك هو الصراع الذى اشتعل بين العباسيين والدولة البيزنطية فى عهد ثيوفيل ، والذى يتصل اتصالا وثيقا بالصراع الكريتى البيزنطى ، أذ ان هذه الحروب المتواصلة مع العباسيين لم تمكن الامبراطور ثيوفيل من معالجة مشاكله مع جزيرة كريت ، والعمل على اخراجها من ايدى فاتحيها المسلمين ، ويلاحظ ان المصادر لم تمدنا بشئ عن طبيعة العلاقات بين جزيرة كريت والدولة البيزنطية خلال فترة الصراع البيزنطى العباسى ، ومن الجائز ان يكون مسلمو كريت قد واصلوا غاراتهم على الاراضى البيزنطية خلال هذه المرحلة ، ولكن لم تصلنا اخبار هذه الغارات . او لعلهم نعموا بفترة من الهدوء والاستقرار اثناء انشغال البيزنطيين عنهم . وان كان المرجح ان يكونوا قد استغلوا الظروف التى مرت بها الدولة البيزنطية وقتذاك ، وعملوا على مواصلة فتوحاتهم فى الجزيرة محاولين استخلاصها لانفسهم والقضاء على النفوذ البيزنطى فيها ، فثمة اشارة اوردها المؤرخ ابن تغرى بردى (٢) يفهم منها ان المسلمين قد اتموا فتح جزيرة كريت فى ٢٣٠ هـ)١٨ سبتمبر ٨٤٤ — ٦ سبتمبر ٨٤٥ م)، والجزء الاخير من مرحلة الفتح هذه يغطى كل عصر

Monachus, p. 805; Genesius, p. 65; Symeon Magistri, p. 639; Zonaras, = p. 417.

(١) Genesius, p. 66; Theophanes Continuatus, p. 131.

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٣ ، ص ٣٢٧ .

الامبراطور ثيوفيل (٨٢٩ – ٨٤٢ م) ، وهذا يدعوا للتساؤل عما اذا كان هناك اتفاق مثلا ، تم بين امارة كريت والخلافة العباسية ببغداد ، بقصد ان تفتح هذه جبهة ثانية للقتال مع الدولة البيزنطية فى المشرق ، حتى يتفرغ الفاتحون المسلمون لمواصلة فتوحاتهم فى ارجاء الجزيرة الكريتية وطرد النفوذ البيزنطى منها . والواقع اننا لانستطيع ان نؤكد عقد مثل هذا الاتفاق بينهما اذ لاتشير المصادر من عربية وبيزنطية الى اى اتفاق من هذا النوع فضلا عن ان الجانب البيزنطى هو الذى بدأ هذه الحروب مستغلا الظروف السياسية الحرجة التى تعرضت لها الدولة العباسية انذاك . لذلك فان الامر على مايبدو لا يعدو أن يكون مجرد ظروف سياسية طارئة ظهرت على مسرح الحوادث فى هذه الفترة من الزمن ، وهيأتها احداث معينة خاصة بالدولتين العباسية والبيزنطية واستغلها مسلمو كريت لصالحهم .

وقد كان للهزائم التى انزلها مسلمو كريت بالدولة البيزنطية منذ بداية فتحهم للجزيرة وحتى ذلك الوقت ، اسوأ الاثر فى نفس الامبراطور ثيوفيل ، وزاد من شعوره بالمرارة الضربات العنيفة التى انزلها به العباسيون فى آسيا الصغرى ، وادرك هذا الامبراطور حينئذ انه لاقبل له بمواجهة المسلمين ، فأخذ فى طلب المساعدة العسكرية من الخارج . وقد اشار المؤرخ المغربى المقرى الى سفارة ارسلها لامبراطور ثيوفيل الى الخليفة الاموى عبد الرحمن الثانى (٨٢٢ – ٨٥٢ م / ٢٠٧ – ٢٨٣ هـ) وذلك فى عام ٢٢٥ هـ (٨٣٩ – ٨٤٠ م) . ولم يعرض المقرى لتفاصيل هذه السفاره ، وانما اشار اليها فى عبارات سريعة مقتضبة ، فقال ان الامبراطور ثيوفيل – الذى ذكره باسم توفلس – ارسل للامير عبد الرحمن «يطلب مواصلته ويرغبه فى ملك سلفه بالمشرق» . (١) ولم تمدنا المصادر الاخرى بأيه تفاصيل عن

(١) المقريزى : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، ج ١ ، ص ٣٢٤ .

هذه السفارة ، او مضمون رسالة الامبراطور الى الامير الاموى . ولكن ، لحسن الحظ ، وصلنا رد الامير عبد الرحمن على رسالة ثيوفيل . فقد عثر المؤرخ الفرنسى ليفى بروفنسال Levi Provensal فى مكتبه جامع القرويين بمدينة فاس ، على مخطوط يدعى «المقتبس» للمؤرخ الاندلسى ابى مروان ابن حيان ، الذى عاش فى القرن التاسع الميلادى . وقد اورد ابن حيان فى مخطوطه نص الرسالة التى رد بها الامير عبد الرحمن على خطاب الامبراطور البيزنطى ثيوفيل ، وقام بروفنسال بنشرها (١) . ومنها يتضح ان الامير عبد الرحمن تناول الاجابة فقره فقره على رسالة ثيوفيل . ويفهم من هذا الرد ان الامبراطور البيزنطى ارسل اليه يطلب منه التعاون معا فى عمل عسكرى مشترك ضد العباسيين فى المشرق ، وضد جزيرة كريت ايضا ، بحيث يؤول ملك العباسيين الى الامير الاموى ، اما كريت فلم يوضح ماذا سيتم بشأنها ، ومن المرجح انه طلب ان تعود الى الدولة البيزنطية ، او على الاقل يمنع المسلمون بها من الاغارة على الممتلكات البيزنطية ، ويبدو ان الامبراطور ثيوفيل اوضح للامير الاموى عجزه عن الوقوف وحده فى وجه مسلمى كريت ، وطلب منه التدخل لوضع حد لغاراتهم على الاراض البيزنطية . فقد اخذ الامير الاموى — فى لهجة لاتخلو من التهكم يبدى تعجبه من عجز الامبراطور البيزنطى من حفظ ممتلكاته والضرب على ايدى هذه الفئة القليلة ، فقال موجها كلامه الى ثيوفيل : واماما ذكرت من امر ابى حفص الاندلسى (٢) ومن صار معه من أهل بلدنا فى خضوعهم لابن مارده ، (٣)

---

(١) نشرها بروفنسال فى المجلد الثانى عشر من المجلة البيزنطية ، أنظر

Byzantion, vol. 12, Paris, 1937, pp. 17—20.

انظر نص الرسالة مع التعليق عليها فى الملحق رقم ٢ .

(٢) هو حاكم امارة كريت آنذاك .

(٣) يقصد الأمير عبد الرحمن الأموى بأبن الخليفة مارده العباسى المعتصم بالله ، لأن أمه كانت=

فأنه لم ينزع اليه منهم الاسفلتهم وسوادهم . وفسقتهم وأباقهم ، وليسوا فى بلدنا و لا بر تبتنا فنغير عليهم ، ونكفيك مؤنتهم ، وانما اضطروا الى الدخول فى طاعة ابن مارده لمأمنهم من بلاده ، ودنو ناحيتهم من ناحيته ، ولم نكن نحسبك تعجز عنهم ولا تصعب عن نكايتهم ، ولا تتوقف عن اخراجهم عما تطرقوه من بلدك . »

وهكذا لم يشأ الامير الاموى ان يعد الامبراطور بالتدخل السريع والعمل الحازم ضد كريت الاسلامية ، غير انه وعده بالتدخل الفعلى فى حالة نجاح حلفهم المقبل ، واستعادة الامير الاموى لملك اسلافه فى المشرق فقال : وان الله بحوله وقوته ، وفضله ومنته ، رد الينا سلطاننا بالمشرق وما كان تحت ايدى آبائنا منه ، نظرنا فى ذلك بما فيه صلاح لنا ولك . واستقامة لطاعتنا وطاعتك وعرفنا الذى يكون من معونتك على مادعوت اليه ، وجضضت عليه ، بما يعرفه الصديق لصديقه ، وذو المودة لأهل مودته والواقع ان الامير عبد الرحمن لم يكن باستطاعته ان يعجل بارسال مساعدة للامبراطور البيزنطى نظرا للظروف التى صادفته وقتذاك. فقد كان اهل البلاد الاصليين دائمى الثورة والتمرد ، وكان العداء بينهم وبين المسلمين مما يقلق بال الامير الاندلسى ، فغالبا ما قامت بينهما المعارك لاتفه الاسباب (١) ، كما أن حكام بلاد جليقيه (٢) كانوا يجاهدون جهادا حارا من اجل الاستقلال ، وكان

= تدعى ماردة ، وهى جارية أم ولد للخليفة هارون الرشيد وقد ذكر الأمير عبد الرحمن ذلك على سبيل التحقير للخليفة المعتصم . انظر اليعقوبى ، التاريخ ، جـ ٢ ، ص ١٩٧ .

(1) Dozy, History of Musulman of Espain, vol 11, pp. 96—101.

(٢) تقع بلاد جليقية فى شمال الأندلس وهى تضم مدينتا طليطلة وبرشلونة والجهات المجاورة ، ويسمى سكانها بالجلالقة ، ويصفهم ابن الوردى بقوله : «والغالب على أهلها الجهل والحمق ومن زيهم أنهم لا يغسلون ثيابهم أبدا ، بل يلبسونها وسخة إلى أن تبلى ، ويدخل أحدهم بيت الآخر بغير أذنه ، وهم مهملون فى أديانهم كالبهائم بل أضل» . أما القلقشندى فيذكر أنه يطلق على ملوك هذه البلاد اسم — «أدفونش» ويسميه العامة «الفنش» . انظر عن ذلك ابن الوردى : خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، ص ٧٩ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٤٨٤ .

ذلك يستلزم جهودا عسكرية من جانب الامير عبد الرحمن لقمع حركات التمرد التى قام بها هؤلاء الحكام . ويشير ابن الاثير الى قيام الامير عبد الرحمن بغزو هذه البلاد فى نفس تلك السنة ٢٢٥ هـ (٨٤٠ م) فيقول: «سار عبد الرحمن صاحب الاندلس فى جيش كبير الى بلاد المشركين فى شعبان(١) فدخل بلاد جليقية فافتتح منها عدة حصون ، وجال فى ارضهم يخرب ويغنم ويقتل ويسبي ،واطال المقام فى هذه الغزاه ثم عاد الى قرطبة».(٢) لذلك فقد فضل الامير الاموى ان يترك باب المفاوضات مفتوحا على امل ان تتحسن ظروفه فى المستقبل بشكل يمكنه من التعاون مع الامبراطور البيزنطى فى عمل عسكرى مشترك كما دعاه ثيوفيل الى ذلك .

وقد اختتم الامير عبد الرحمن رسالته الى الامبراطور ثيوفيل مؤكداله استعداده لعقد مثل هذا التحالف معه ، ولتأكيد ذلك ارسل اليه سفارة على رأسها رسولين من خاصته: احدهما هو الشاعر يحى الغزال وهو من الشخصيات البارزة فى الاندلس ، والثانى يدعى يحى بن حبيب ويعرف بصاحب المنيقله (٣) وجاء فى هذه الفقرة الاخيرة من رسالة الامير عبد الرحمن الى الامبراطور ثيوفيل مايلى: «وقد ادخلنا رسولك قرطيوس علينا وكشفناه على الذى أوصيت به الينا ، وعن كل مايجب لصديق ان يعرفه من حال صديقه ، ووجهنا اليك بكتابنا هذا رسولين من صالحى من قبلنا ،

(١) شعبان من عام ٢٢٥ هـ يقابل يونيه من عام ٨٤٠ م .

(٢) ابن الاثير : الكامل ، جـ ٦ ، ص ٢١٢ . وانظر كذلك ، النويرى : نهاية الأرب ، جـ ٢٢ ، لوحة ٢٢ ، ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ١٢٨ (بيروت) .

(٣) المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ٣٢٤ .
ويرجع بروفنسال أصل هذه التسمية إلى ابتكار هذا الشخص لنوع من الساعات أنظر ، بروفنسال الاسلام فى المغرب والأندلس : ص ١٠٠ ، راجع أيضا، عنان: دولة الأسلام فى الأندلس ، ص ٢٦٥

فاكتب الينا معهما بالذى أنت عليه من الامر الذى كتبت به الينا ، والذى يجب عليك من سائر خبرك ، ومتعة عافيتك ، لننظر فيما يتصرفان به على حسب مايأتينا به من عندك ان شاء الله ».

وقد غادرت سفارة الامير عبد الرحمن الاندلسى مصحوبة بالرسول البيزنطى قرطيوس ، ووصلت الى القسطنطينية بعد رحلة بحرية شاقة ، وهناك قوبلت السفارة بترحيب بالغ ، وأدى يحى الغزال سفارته خير أداء وعمل على توثيق الصلة والمودة بين الطرفين ،أو كما قال المقرى«فاحكم بينهما الوصله»(١)

والواقع ان مشروع هذا التحالف لابد وان يثير بعض التساؤلات عن الدوافع التى حدت بالامبراطور ثيوفيل الى التقدم به الى الامير الاموى عبد الرحمن دون غيره من الحكام المعاصرين . والباحث فى هذا الموضوع لابد وان يدرك ان هناك عدة عوامل كانت وراء اختيار الامبراطور ثيوفيل للامير عبد الرحمن بالذات ، ومن اهم هذه العوامل ، ان تباعد الحدود بين الخلافة الاموية فى الاندلس ،والدولة البيزنطية ،وبالتالى عدم وجود مشاكل سياسية بين الطرفين ،ادى لارتباطهما بعلاقات تقليدية قائمة على اساس الود والصداقة المتبادلتين ، وان تاريخ العلاقات بين الدولتين يؤكد هـذه الحقيقـة . يضاف الى ذلك ادراك الامبراطور البيزنطى ثيوفيل لطبيعة العداء المستحكم بين الأمويين فى الاندلس والعباسيين فى المشرق ، الذين اسقطوا الخلافـة الاموية هناك فى عام ١٣٢ هـ (٧٤٨ — ٧٤٩ م) (٢) واسسوا خلافتهم على

---

(١) المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٣٢٤ .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج ٢ ص ١٥٥ — ١٥٦ .

انقاضها . لذلك فقد نظر اليهم الامويون بالاندلس دائما على انهم مغتصبون لحقهم الشرعى فى امتلاك المشرق الاسلامى. كذلك تفهم الامبراطور ثيوفيل للحزازات الموجودة بين اموى الاندلس ومسلمى كريت ، حيث ان هؤلاء الاخرين كانوا فيما مضى من رعايا الامويين ، ثم شقوا عصا الطاعة عليهم وخرجوا مطرودين من موطنهم الاصلى فى الاندلس . اذن فهم من وجهة النظر الاموية ، رعايا متمردين وثوار خونة ، يحق لهم عقابهم والنيل منهم اذا واتتهم الفرصة لذلك .

واخيرا فلعل النهضة التى بلغتها دولة الاندلس فى شتى المجالات ، فى عهد الامير عبد الرحمن الثانى (١) ، قد شجعت الامبراطور ثيوفيل على التوجه اليه طالبا قيام مثل هذا التحالف بينهما .

وعلى ايه حال فان مشروع هذا التحالف لم يخرج الى حيز التنفيذ ، اذ تطورت الاحداث فى الاندلس بشكل ادى الى انصراف الامير عبد الرحمن عن هذا المشروع . فقد تعرضت البلاد لغارة كبيرة من جانب المغامرين

(١) انظر عن ذلك ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٢ ، صص ١٣٥ – ١٣٦ .
ومما ذكره هذا المؤرخ عن الامير عبد الرحمن الثانى فى عصره . قوله : «.... وكان شاعرا اديبا ذا همة عالية ، وكانت له غزوات كثيرة وفتوحات فى دار العدو شهيرة ، يخرج اليها فى العدد الجم ، والعسكر الضخم . يخرب ديارهم ويعفى آثارهم ، ويقفل ظافر الاعتلاء ، قاهر الأعداء . لم يلق المسلمون معه بؤسا ، ولم يروا فى مدته يوما عبوسا . وهو أول من جرى على سنن الخلفاء فى الزينة والشكل وترتيب الخدمة ، وكسا الخلافة ابهة الجلالة ، فشيد القصور وجلب اليها المياه ، وبنى الرصيف ، وعمل عليه السقائف ، وبنى المساجد الجوامع بالاندلس وعمل السقاية على الرصيف . أحدث الطرز واستنبط عملها وأتخذ السكة بقرطبة وفخم ملكه ... وفى أيامه دخل الاندلس نفيس الوطا وغرائب الأشياء وسيق ذلك إليه من بغداد وغيرها ....» .

الفكنج Vikıngs (١) ، الذين اطلق عليهم المؤرخون المسلمون اسم المجوس (٢) ، او الاردمانيين (٣) . وقد جاؤا فى نحو ثمانين سفينة ، ونزلوا على الساحل الغربى لبلاد الاندلس ، وكان اول

---

(١) الفيكنج هم العناصر الشمالية (سويديون ونرويجيون ودانيون «سكان الدانمرك») التى سكنت شبه جزيرة سكندناوه وشبه جزيرة الدانمرك .وهم ينتمون من الناحية العنصرية إلى الأصل التيتونى أو الجرمانى . واسم لفيكنج بمعنى سكان الفيوردات أو الخلجان ، وهى الظاهرة الطبيعية التى تمتاز بكثرتها شواطئ الجهات الشمالية الغربية من أوروبا ونظرا لطبيعة بلادهم الجبلية ذات الغابات والأحراش والمستنقعات ، لم يكن أمامهم مجالا للعيش سوى السهول الساحلية ، وهى لاتعدو فى معظم الأحيان أشرطة ضيقة من الأرض ، وهكذا دفعت الطبيعة الفيكنج نحو البحر ، فبرعوا فى بناء السفن الصغيرة المكشوفة التى أتصفت بطولها وقلة عرضها ، وسارت بالمجداف أو الشراع ، وجابوا بها شواطئ أوروبا من البحر البلطى حتى البحر المتوسط ، بل قاموا برحلات بعيدة فى المحيط الاطلنطى حتى أصبحوا من أعظم الشعوب البحرية التى عرفتها أوروبا العصور الوسطى .

وقد عرف عن الفيكنج مهارتهم فى القتال وقوة تسلحهم ، فكان كل محارب منهم مزودا ببلطة وحربه طويلة ، ودرع واق ، وخوذة من الحديد . وقد لعبوا دورا كبيرا فى تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى لما قاموا به من حركة توسعية هائلة أغاروا خلالها على عديد من البلاد الأوروبية : مثل ممتلكات الأمبراطورية الكارولنجية ، وانجلترا ، وايرلندا ، والجزر الشمالية (ايسلاند وجرينلاند(، وبعض بلاد حوض البحر المتوسط .

وبشأن كل مايتعلق بالفيكنج وتاريخهم وحضارتهم ونشاطهم الحربى فى العصور الوسطى أنظر سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، الجزء الأول (التاريخ السياسى) الطبعة الرابعة ١٩٦٦ ، الباب العاشر ، صص ٢١٨ — ٢٤٧ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج٢ ، صص ٨٧ — ٨٨ ، القرطبى : تاريخ افتتاح الاندلس صص ٨٤ — ٨٦ ، ابو الفد : المختصر فى أخبار البشر ، ج٢ ، ص ٣٨ ، ابن الاثير : الكامل ، ج ٧ ، ص ٦ ، النويرى : نهاية الارب فى فنون الأدب ، ج٢٢ ، لوحة ٢٣ ، ولوحة ٢٤ .

ويرجح الاستاذ الدكتور سعيد عاشور أن المسلمين أطلقوا اسم «المجوس» على الفيكنج نتيجة للحرائق التى كانوا يشعلونها فى البلاد التى يستولون عليها ، أو لما أعتاده الفيكنج من أشعال النار ليلا للاستئناس والتدفئة ، الامر الذى جعل المسلمين يعتقدون أن هؤلاء القوم من عبدة النار أى «المجوس» . أنظر : سعيد عاشور : نفس المرجع ، ص ٢٤٤ ، حاشية رقم (٤) .

(٣) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، ص ٤٩ .

نزولهم بمدينة لشبونة (١) ، فى ذى الحجة ٢٢٩ هـ ، (اغسطس — سبتمبر ٨٤٤ م) وظلوا فى اشتباكات مستمرة مع سكانها ، ثم تركوها الى قادس (٢) فشذونه (٣) ، ثم ساروا يريدون اشبيليه (٤) ، ونزلوا بموضع يعرف باسم

---

(١) وردت هذه المدينة فى المصادر العربية باسم «اشبونة» ، وتقع إلى الشمال الغربى من مدينة اشبيلية ، واشتهرت لشبونة بكثرة بساتينها وثمارها ، وقال الجغرافى الحميرى فى وصفها : «وهى مدينة قديمة على سيف البحر ، تنكسر أمواجه على سورها ، وسورها رائق البنيان ، بديع الشأن ، وبابها الغربى قد عقدت عليه حنايا فوق حنايا على عمد من رخام مثبتة على حجارة من رخام ، وهو أكبر أبوابها ، ولها باب غربى أيضا يعرف بباب الخوخة مشرف على سرح فسيح يشقه جدولا ماء يصبان فى البحر ، ولها باب قبلى يسمى باب البحر تدخل أمواج البحر فيه عند مده ، وترتفع فى سوره ثلاث قيم ، وباب شرقى يعرف بباب الحمة ، والحمة على مقربه منه ومن البحر ديماس ماء حار وماء بارد ، فإذا مد البحر واراهما ، وباب شرقى أيضا يعرف بباب المقبرة . والمدينة فى ذاتها حسنة ممتدة مع النهر لها سور وقصبة ، منيعة » أنظر الحميرى : صفة جزيرة الاندلس ، منتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الاقطار ، نشرها وصححها وعلق حواشيها ليفى بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٣٧ ، ص ١٦ . أنظر كذلك ، القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ٢١٩ ، ص ٢٢٢ .

(٢) قادس جزيرة صغيرة على الساحل الغربى للاندلس «وطول جزيرة قادس من القبلة إلى الجوف اثنا عشر ميلا وعرضها فى أوسع المواضع ميل ، ولها مزارع كثيرة الريع وأكثر مواشيها المعز ، وبها آثار للأول كثيرة » أنظر الحميرى : نفس المصدر ، ص ١٤٥ .

(٣) تعتبر شذونه من المدن الصغيرة بالاندلس ، وأشتهرت بوفرة مياهها وكثرة خيراتها البرية والبحرية على السواء ، وأمتازت تربتها بالجودة وبانتاج أجود أنواع العنبر ، أنظر الحميرى نفس المصدر ، ص ١٠٠ .

(٤) يقال أن أصل أسمها هو «اشبالى» بمعنى «المدينة المنبسطة» وهى تقع إلى الجنوب على الساحل الغربى للاندلس ، وبينها وبين مدينة قرطبة ثمانون ميلا . واشبيلية من المدن القديمة الأزلية فى الاندلس ، وقال ابن حوقل أنها اشتهرت بكثرة الفواكه والكروم والتين بصفة خاصة ، أما الحميرى فوصفها بقوله : «وهى كبيرة عامرة ، لها أسوار حصينة وأسواقها عامرة ، وخلقها كثير وأهلها مياسير ، وجل تجارتهم الزيت يتجهزون به منها إلى المشرق والمغرب برا وبحرا ، فيجتمع هذا الزيت من الشرف (جبل يقع غرب اشبيلية) وهو مسافة أربعين ميلا كلها فى ظل شجر الزيتون والتين ، أوله مدينة أشبيلية وأخره مدينة لبله ، وسعته اثنا عشر ميلا ، وفيه ثمانية الاف قرية عامرة بالحمامات والمديار الحسنة .... وكان سور =

قودره – على بعد اثنى عشر ميلا من اشبيلية – فخرج اليهم كثير من المسلمين والتقوا بهم فى ١٢ المحرم ٢٣٠ هـ (٣٠ سبتمبر ٨٤٤ م) ، فانهزم المسلمون ، وواصل الفيكنج تقدمهم حتى وصلوا الى طليـــاطة – على بعد ميلين مـــن اشبيليه – وقاتلوا اهلها فى ١٤ المحرم ٢٣٠ هـ (اكتوبر ٨٤٤ م) وحلت بالمسلمين الهزيمة ، وكثر القتل والاسر بينهم ، ولم يرفع هؤلاء المغامرون السيف عن أحد ولا عن دابة (١) . واخيرا وصلوا الى اشبيليه «فاحتلوا بها احتلالا ، ونازلوها نزالا ، الى ان دخلوها قسرا ، واستأصلوا اهلها قتلا واسرا . وبقوا بها سبعة ايام ، يسقون أهلها كأس الحمام» ، وذلك على حد تعبير المؤرخ ابن عذارى (٢) .

وقد ارسل االيهم الامير عبد الرحمن جيشا فقاتلهم والحق بهم الهزيمة ، ثم ارسل اليهم جيشا اخر اوقع بهم ، واخذ فى مطاردتهم ، وجاءت الامدادات من كل مكان بالاندلس لمحاربة هؤلاء المغامرين ، واخذوا يلحقون بهم الهزيمة تلو الاخرى . فانسحب الفيكنج عائدين الى لشبونه ، وفى طريقهم

= أشبيلية من بناء عبد الرحمن بن الحكم ، بناه بعد غلبة المجوس عليها بالحجر وأحكم بناءها وكذلك جامعها من بنائه وهو عجيب البنيان وجليله وصومعته بديعة الصناعة ، غريبة العمل أركانها الاربعة عمود فوق عمود إلى أعلاها ، فى كل ركن ثلاثة أعمدة . وباشبيلية آثار للاول كثيرة وبها أساطين عظام تدل على هياكل كانت بها ..... وكل ماأستودع أرض أشبيلية نمى وزكى وجل ، والقطن يجود بأرضها فيعم بلاد الاندلس ويتجهز به التجار إلى أفريقية وسجلماسه وماوالاها ..... أنظر الحميرى : نفس المصدر ، ص ص ١٨ – ٢١ ، أنظر أيضا ابن حوقل : صورة الارض ، القسم الاول ، الطبعة الثانية ، ص١١٥ القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ٢٢٥ .

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج٢ ، ص ص ٨٧ – ٨٨ ، ابن الاثير : الكامل ، ج٧ ، ص٦ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج٢ ، ص ٨٧ ، انظرى كذلك ، ابن الاثير : الكامل ، ج٧ ، ص٦ .

اليها التقوا مع جيوش المسلمين فى معركة عند طلياطة فى يوم الثلاثاء ٢٥ صفر ٢٣٠ هـ (اول اكتوبر ٨٤٤ م) فهزمهم المسلمون وقتلوا منهم اعدادا كبيرة كما احرقوا لهم ثلاثين مركبا (١) . فاكمل الفيكنج انسحابهم حتى وصلوا الى مدينة لبله (٢) واصابوا منها سبيا ، ثم رحلوا الى شذونه فغنموا وسبوا منها ومن غيرها من المدن المجاورة مثل باكشونيه وباجه ، حتى وصلوا الى مدينة لشبونة فرحلوا منها الى بلادهم (٣) .

وقد تسبب هذا الهجوم فى انزال خسائر مادية وبشرية كبيرة بالبلاد الواقعة غربى الاندلس ، وبعد رحيل هؤلاء الغزاة ، قام الامير عبد الرحمن بأصلاح ما خربوه من البلاد وزاد فى عدد الحاميات الموجودة بها (٤) . وتذكر المصادر ان مفاوضات قد جرت بين الامير عبد الرحمن وزعيم الفيكنج ، وان الامير الاموى ارسل اليه سفارة على رأسها يحى الغزال ، بعد

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ٢ ، ص ٨٨ ، ابن الاثير : الكامل ، جـ٧ ، ص ٦ .

(٢) تقع لبله فى غرب الاندلس وبينها وبين البحر ستة أميال وهى مدينة قديمة بها ثلاثة عيون احداها عين تسهشر وهى اغزرها ، والثانية عين تنبعث بالشب ، والثالثة عين تنبعث بالزاج وتعرف لبله بالحمراء ، وفيها آثار للاول كثيرة ، وسور لبله قد عقد على اربعة تماثيل ، ويخيل إلى الناظر أن ذلك البنيان موضوع على اعناقهم ، وانفردت بهذه البنيه من بين سائر المدن . ولبله مدينة حسنه ازلية ، متوسطة القدر ، لها سور منيع ، ونهر هايأتيها من ناحية الجبل ، ويجاز عليه فى قنطرة إلى لبله ، وبها اسواق وتجارات . . . . . وكور لبله كثيرة الزيتون ، والشجر ، وضروب الثمار ، يكون فيها القرنفل الفاضل ، وهى سهلية جبلية » انظر الحميرى : صفة جزيرة الاندلس ، ص ص ١٦٨ — ١٦٩ .

(٣) انظر اخبار هذه الغارة بالتفصيل فى المصادر التالية ابن عذارى : البيان المغرب جـ٢ ، ص ٨٧ — ٨٨ ، ابن الاثير : الكامل ، جـ٧ ، ص ٦ ، القرطبى : تاريخ افتتاح الاندلس ، ص ص ٨٤ — ٨٦ . وهناك مصادر اخرى تعرضت لها باختصار شديد ، انظر على سبيل المثال المقرى : نفخ الطيب ، جـ١ ، ص ص ٣٢٣ — ٣٢٤ ، ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، ص ٤٩ ، ابو الفدا : المختصر فى اخبار البشر ، خـ٢ ، ص ٣٨ .

(٤) المقرى : نفح الطيب ، جـ٢ ، ص ٣٢٤ .

عودته من بيزنطة ، فذهب الى شمال اوروبا بعد رحلة بحرية عبر فيها المحيط الاطلنطى ، وادى هذه السفارة ثم عاد الى بلاده بعد عشرين شهر (١) .

وهكذا شغل الامير عبد الرحمن بهذه الظروف الجديدة عن مشروع التحالف المقترح من جانب الامبراطور البيزنطى ثيوفيل ، بتأليف جبهة قوية واسعة ضد العدو المشترك لكليهما .

وفى نفس الوقت كانت الظروف قد تغيرت فى الدولة البيزنطية ، فقد توفى الامبراطور ثيوفيل فى ٢٠ يناير ٨٤٢ م(٢٩ ربيع الاول ٢٢٧ هـ) بعد ان اشتد به المرض ، اثر الهزائم التى انزلها به المسلمون ، اذ اصابته حمى شديدة حتى كان بحسب الثلج دافئا على حد تعبير المؤرخ البيزنطى جينيزيوس ، ولما اسرف فى تناول الماء المثلج اصابه مرض الدوسنتاريا الذى قضى عليه (٢) و بعد وفاته قضى على هذا المشروع بصفة نهائية .

توفى الامبراطور ثيوفيل وترك ستة ابناء ، خمس بنات وولد واحد ، وقد انتقل العرش الى ابنه ميخائيل Michael الذى عرف فى التاريخ باسم ميخائيل الثالث . ولما كان هذا الامبراطور الجديد لم يتجاوز السادسة من عمره وقتذاك ، فقد تولت الوصاية عليه والدته الامبراطورة ثيودورا Theodora وتألف مجلس لمساعدتها فى تصريف شئون الامبراطورية ، تكون من شقيقها برداس Bardas ، وبترونا Petronas ، وخالها سرجيوس نكتياتيس Sergius Nicetiates وصديقها

---

(١) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، ص ٤٩ ، راجع ايضا : بروفنسال : الاسلام فى المغرب والاندلس ، ص ١١٢ .

(2) Genesius, op. cit., p. 70; Theophanes Continuatus, p. 131; كيدريوس : نفس المصدر ، ص ١٣٧ ، باليونانيه .

اللغيثيت(١) تيوكتيستوس The Logothete Theoctistos

الذى استغل مكانته عند ثيودورا واستحوذ على السلطة ، واصبح هو المتصرف الوحيد فى شئون الحكم طوال فترة وصايتها التى استمرت ١٤ عاما (٨٤٢ — ٨٥٦ ٢٢٧ — ٢٤١ هـ) . وقد اشتهر تيوكتيستوس باهتمامه الكبير بنشر الثقافة والتعليم فى الامبراطورية ، كما عرف بنشاطه الجم فى النواحى المالية ، وترتب على ذلك وجود فائض كبير من الذهب فى الخزينة الامبراطورية . ولعل اهم الاحداث التى وقعت اثناء فترة وصاية ثيودورا ، هى العودة الى الارثوذكسية الصحيحة اذا تم عزل بطريركالقسطنطينيةحنا النحوى المعروف بعدائه للايقونيه ، وحل محله بطريركا ارثوذكسيا يدعى ميثوديوس Methodius وقد تلاذلك عقد مجمع دينى فى القسطنطينية تقررفيه اعادة عبادة الصور المقدسة ، وتم الاحتفال بذلك ، فأقيم قداس بكنيسة سانت صوفيا . St. Sophia فى اول احد من الصيام الكبير (١١ مارس ٨٤٣م) وحضرت الامبراطورة الى الكنيسة ، يصحبها الامبراطور الطفل ميخائيل الثالث والبطريرك ، ورجال الدين ، والوزراء وأعضاء السناتو ، وكانوا يحملون فى أيديهم الصلبان والايقونات والشموع . ومنذ ذلك الحين والكنيسة

---

(١) اللغيثيت هو الوزير الذى له اوثق الصلات بالامبراطور ، فكان يقابله كل يوم تقريبا ، ومن واجبات اللغيثيت تقديم الوزراء والضباط للامبراطور لكى يقلدهم وظائفهم وكذلك عمل الترتيبات اللازمة لاستقبال السفراء الاجانب ، وتجهيز البعثات السياسية الامبراطورية إلى البلاد الاجنبية واختيار افراد هذه البعثات ، ومن واجباته ايضا الاشراف على الاحتفالات الرسمية التى يظهر فيها الامبراطور للشعب .

انظر

Bury, The Imperial System, p. 92.

راجع كذلك ، رانسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ١٨٤ .

الارثوذكسية تحتفل فى نفس الموعد بهذه الذكرى التى تعتبر عيد الارثوذكسية اليونانية (١) .

نخلص مما سبق ان هذه المشاغل الداخلية التى حلت بالدولة البيزنطية ، قد صرفتها عن التفكير الجدى فى القيام بحملة جديدة ضد كريت . ولكن بعد أن استتبت الامور واستقرت الاحوال بعودة بيزنطة الى الخط القويم للارثوذكسية ، قرر المسؤلون بها القيام بحملة على كريت بقصد استردادها من قبضة المسلمين . ويرجع الفضل فى امدادنا بالمعلومات التاريخية المتعلقة بهذه الحملة ، الى المؤرخ البيزنطى المعاصر موناخوس ، الذى ذكرها بشئ من التفصيل وان لم يكن سرده لها بصورة كافية تسمح بالاحاطة بكافة الدقائق والتفاصيل التى تتعلق بها (٢) . وقد تحرى موناخوس الدقة فى تحديد تاريخ هذه الحملة ، فذكر انها ابحرت الى كريت فى اول احد بعد عودة الارثوذكيسه الصحيحة ، وتبعا لذلك يكون تاريخ ابحارها هو يوم الاحد

---

(1) Monachus, op. cit., p. 810.

انظر كذلك المراجع التالية :

Brehier, Vie et Mort de Byzance, pp. 114—115; Ostrogorsky, op. cit., pp. 186, p. 195; Bury, op. cit., pp. 148—150; Vasiliev, op. cit., p. 359.

(2) Monachus, op. cit., pp. 814—815.

وقد اشار إلى هذه الحملة ايضا كل من الماجستر سيميون وصاحب صلة ثيوفان ولكن فى عبارات سريعة موجزة للغاية ، انظر :

Symeon Magistri, op. cit., p. 654; Theophanes Continuatus, Liber IV, p. 203.

١٨ مارس ٨٤٣ م (١) (جمادى الثانى ٢٢٨ هـ). ولم يذكر موناخوس عدد السفن المشتركة فيها او نوعها او اى شئ عن استعداداتها ، وانما اكتفى بقوله انها اشتملت على قوات كثيره وسفن عـــديدة (٢) وقـــد تولى اللغثيت تيوكتيستوس قيادة هذه الحملة البحرية . ويرجع احد المؤرخين الغربيين الحديثين وهو ارشيبالد لويس ان هذه الحملة لم تصل الى كريت ويقول فى هذا الشأن « ويبدو ان مؤامرات اهل كريت كانت ناجحة لدرجة انهـــا عاقت هذا الاسطول حتى عن الابحار من موانيه (٣) .» على ان الثابت ان ثيوكتيستوس قد تقدم بسفنه وقواته الى كريت ، ونزل على ارض الجزيرة بالفعل (٤) ، حيث قاتل بشجاعة ، واحرز الانتصار على المسلمين الذين لم يكونوا على علم سابق بهذه الحملة ، كما كان اسطولهم غائبا يقوم بالاغارة على جزر البحر الايجى . وحين رأى المسلمون بكريت ضعف امكانياتهم العسكرية عن صد هذا الهجوم البيزنطى ، لجأوا الى الاساليب التى هى اشبه ما تكون بالحرب النفسية المعروفة فى العصر الحديث واثبتوا بذلك تفوقا فكريا عظيما ، كما اثبتوا درايتهم التامة بالاحوال الداخلية فى الدولة البيزنطية

---

(1) Monachus, op, cit., p. 814.

وقد ذكر الماجستر سيميون انها حدثت فى السنة الثانية من وصاية ثيودورا أى خلال عام ٨٤٣م ، (٢٢٨ هـ) وعلى ذلك فهو يتفق مع موناخوس فى تحديد السنة التى قامت فيها الحملة . انظر :

Symeon Magistri, op. cit., p. 654.

(٣) لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ص ٢٢٣ .

(4) Monachus, op. cit., pp. 814—815.

هذا ولم يحدد موناخوس مكان نزول هذه الحملة على كريت تحديدا دقيقا ولم نجد فى المصادر الاخرى والمراجع الحديثة مايفيد فى هذا الشأن .

ذلك انهم رشوا احد الضباط فى الجيش البيزنطى واوعزوا اليه بأن يشيع فى معسكره ان الامبراطورة ثيودورا عزلت تيوكتيستوس عن مجلس الوصاية ، وانها اختارت احد مافسيه ليحل محله (١) . وسرعان ما انتشرت هذه الاشاعة فى المعسكر البيزنطى حتى وصلت الى تيوكتيستوس نفسه ، الذى خشى على منصبه فترك جيشه واسطوله بكريت ، وسارع بالعودة الى القسطنطينية ليستطلع حقيقة الامر . وهكذا شاعت الفوضى والاضطراب بين الجيش البيزنطى الذى اصبح بدون قائد ، فتشتت وتبعثرت قواه ، وعندئذ اوسعه المسلمون تقتيلا واسرا ، كما دمروا الاسطول البيزنطى تدميرا تاما (٢) .

والواقع ان مسئولية فشل هذه الحملة تقع بكاملها على تيوكتيستوس ، فهو كقائد للحملة كان عليه أن يقوم بالواجب الذى كلف به فى كريت اولا خاصة وان الموقف كان فى صالح البيزنطين وكان من المحتمل ان تحقق الحملة هدفها ، غير ان عدم تقدير تيوكتيستوس للمسئولية الكبيرة الملقاة على عاتقه وتفضيله لمصالحه الشخصية ، اضاع على بيزنطة هذه الفرصة ، وكان سببا فى اخفاق هذه الحملة وتكبيد الدولة خسائر مادية وبشرية كبيرة . ولكن رغم ذلك كله فان تيو كتيستوس لم يفقد حظوته لدى الامبراطورة ثيودورا ، واستمر فى منصبه يباشر سلطاته فى الحكم (٣) .

---

(1) Monachus, op. cit., pp. 814—815.

(2) Ibid, p. 815.

(3) Ostrogorsky, op. cit., p. 196

راجع ايضا فازيلييف : العرب والروم ، ص ص ١٧٢ — ١٧٤ .

وبعد هذه الحملة الفاشلة ؛ قرر تيو كتيستوس وثيودورا الانتقام لما انزله المسلمون بها من هزيمة ، ولكن انتقامهم لم يكن موجها هذه المرة الى كريت وانما الى دلتا وادى النيل ، نظر للرابطة التى كانت موجودة بين اهالى كريت المسلمين وحكام مصر . فقد سبقت الاشارة(١)الى ان كريت كانت من الناحية الادارية تتبع اقليم مصر ، وقد ارتبط مسلمو كريت مع اهالى مصر وولاتها بروابط الود والصداقة ، فكانوا يرسلون بخيرات كريت ومنتجاتها الى مصر ، وقال المؤرخ النعمان فى ذلك «ومراكبهم (٢) بخيرات بلدهم واطعمتهم تمير اهل مصر ، وهداياهم تصل الى عمالها (٣) اما النويرى السكندرى فقال انه كان يحمل من كريت العسل والنحل والجبن الكثير لمصر اما مصر فكانت تمد كريت بكل ماتحتاجه من اسلحة(٥) ، حتى غدت دار الصناعة لقراصنة كريت على حد تعبير المؤرخ فازيلييف(٦) .

وفى ذلك الوقت من عام ٨٥٣م(٢٣٨هـ) ، نما الى علم المسئولين فى بيزنطة ان هناك شحنة من الاسلحة موجودة بمدينة دمياط(٧) فى طريقها

---

(١) انظر الفصل الأول من هذا البحث ، ص ٩٢ .

(٢) المقصود مراكب مسلمى كريت .

(٣) النعمان : المجالس والمسايرات ، جـ٢ ، ورقة ٤١٦ (مخطوط) .

(٤) النويرى السكندرى : الالمام بما جرت به الاحكام ، ورقة ١٢٣ أ (مخطوط) .

(٥) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، جـ١١ ، ص ٤٨ .

(٦) فازيلييف : العرب والروم ، ص ١٨٧ .

(٧) تقع دمياط على الجانب الايمن للفرع الشرقى للنيل عند اتصاله بالبحر المتوسط ، وكانت المدينة فى القرن التاسع اقرب الى هذا البحر مما هى عليه الآن ، وهى احدى المدن المصرية العريقة فى القدم ، ويرجع تأسيسها إلى ماقبل الفتح العربى . ويذكر ياقوت انها كانت تشتهر بصناعة الثياب الموشاه وصيد السمك ، والطير والحيتان . وقد تهدمت دمياط القديمة فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ، هدمها السلطان المملوكى بيبرس وبنى المدينة فى موضعها الحالى . انظر : ياقوت : معجم البلدان ، جـ٨ ، ص ٤٧٢ ، ٤٧٣ . انظر كذلك ، جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على مصر ، ص ٩٠ .

الى كريت (١)فأرادوا بهذه الحملة الحيلولة دون وصول هذه الاسلحة اليها .

وقد ذكر هذه الغارة عدد من المؤرخين المسلمين مثل الكندى (٢) ، وابن الاثير (٣)، وابن خلدون(٥) ، على ان اكثر ماجاء عنها من تفاصيل هو مااورده المؤرخ المعاصر الطبرى (٦). اما المؤرخون البيزنطيون فقد اغفلوا ذكرها اغفالا تاما ، ومن المستغرب ان يحدث ذلك خاصة وان الحملة قد انتهت بنجاح الغرض الذى ارسلت من اجله . وذلك فى الواقع يثبت ان تاريخ الاسرة العمورية قد تعرض للتشوية واخفاء كثير من الانتصارات التى حققها اباطرة هذه الاسرة . لذلك فاننا ندين بالفضل للمؤرخين المسلمين فى امدادنا بتفاصيل هذه الحملة البحرية الكبيرة .

على اية حال ، كان الاسطول البيزنطى الذى خرج للهجوم على دمياط يتكون من ثلاثمائة سفينة حربية (شلندية) ، على كل مائة منها قائد . غير انه لم يهاجم دمياط سوى مائة سفينة كانت بقيادة احد امراء البحر البيزنطيين ، الذى ذكره الطبرى باسم(ابن قطونا) (٧) ،اماباقى السفن فلم توضح المصادر

---

(١) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، جـ١١ ، ص ٤٨ .
(٢) الكندى : ولاة مصر ، ص ٢٢٧ .
(٣) ابن الاثير : الكامل ، جـ٧ ، ص ٢٦ .
(٤) ابن خلدون : العبر ، جـ٣ ، ص ٢٧٧ .
(٥) المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ٣٤٦ .
(٦) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، جـ١١ ، ص٤٨ .
(٧) يفترض كل من المؤرخ الفرنسى جريجوار ، والمؤرخ فازيلييف ان ابن قطونا هو قائد بيزنطى يدعى نكيتياتيس بعد ان حرف فازيلييف الاسم إلى ابن نقطونا حتى يتمشى مع الاسم الذى افترضه ، ويفترض بيورى انه كونتوميتيس ، والواقع ان هذه كلها افتراضات ليس لها مايؤيدها اذا لم يعرض احد من المؤرخين البيزنطيين لهذه الحملة ، ولا تخرج هذه الافتراضات عن كونها مجرد اجتهاد شخصى لهؤلاء المؤرخين . انظر :

Gregoire: Etudessur Leneuvieme Siecle dansla Revuede Byzan Tion, tome VIII, Bruscelles, 1933, p. 525.

فازيلييف : العرب والروم ، ص ١٨٩ ، حاشية رقم (١) .

الدور الذى قامت به اثناء هذا الهجوم ، وان كان المرجح انها اضطلعت بحماية ظهر الاسطول البيزنطى الذى هاجم دمياط . وقد وقع هذا الهجوم على مدينة دمياط يوم ١٠ ذى الحجة ٢٣٨هـ (٢٢ مايو ٨٥٣م) ، وكان هذا هو يوم وقفة عيد الاضحى ، وكانت المدينة خالية تماما من حاميتها التى استدعاها الى الفساط والى مصر وقتذاك عنبسه بن اسحاق الضبى ليتجمل بهم فى العيد(١) وقد نزل البيزنطيون الذين كان عددهم يزيد على خمسة الاف مقاتل الى المدينة ، ففزع الاهالى ، وفر فريق منهم فى المراكب الى الفساط ، ونزل فريق اخر الى بحيرة تفصل دمياط عن الشاطئ المقابل لها وهو المعروف باسم البر الشرقى اوجيزة دمياط اوجزيرة دمياط فغرق عدد كبير منهم ، وقتل البيزنطيون اعدادا كثيرة من الاهالى ، كما اسروا اعدادا اخرى ، ويقال ان عدد السبايا بلغ ستمائة امرأة منهن مائة وخمس وعشرون من المسلمات ، والباقيات من نساء القبط (٢) كما انتهبوا المدينة واحتملوا سلاحا كان فيها ارادوا(٣) حملة الى ابى حفص صاحب اقريطش ، نحوا من الف قناة وآلتها(٤) واشعلوا النيران فى اماكن متعددة ، ولم يفرقوا بين المساجد والكنائس فتعرضت كلها للاحراق والتخريب(٥) .

---

(١) الطبرى : تاريخ الامم ، جـ١١ ، ص ٤٨ ، ابن الاثير : الكامل ، جـ٧ ، ص ٢٦ ، ابن خالدون : العبر ، جـ٣ ، ص ٢٧٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٢ ، ص ٢٩٤ .

(٢) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، خـ١١ ، ص ٤٨ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ٧ ، ص٢٦ الكندى : ولاة مصر ، ص ٢٢٧ .

(٣) المقصود أراد اهالى دمياط حملة إلى ابى حفص .

(٤) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، جـ١١ ، ص ٤٨ .

(٥) المصدر السابق : جـ١١ ، ص ٤٨ ، ابن الاثير : الكامل ، جـ٧ ، ص٢٦ ، ابن خلدون : العبر ، جـ٣ ، ص ٢٧٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٢ ، ص ٢٩٤ .

ورغم ظروف هذه الغارة المفاجئة ، الا أن فريقا من اهالى دمياط قد ابدوا بطولة نادرة ، فخرجوا لقتال المعتدين البيزنطيين ، وقتلوا جماعة منهم (١) . وانسحب البيزنطيون بعد ان ملأوا سفنهم بالمتاع والأموال والسبايا واتجهوا الى اشتوم تنيس (٢) ، فخربوه وانتزعوا بابيه المصنوعين من الحديد وحملوهما معهم ، ثم رحلوا الى بلادهم بما غنموا (٣) .

وهكذا انتقم تيوكتيستوس للهزيمة التى الحقها مسلمو كريت بحملته فى عام ٨٤٣ م / ٢٢٨ هـ . على ان الاجل لم يمتد به لكى يقوم بمزيد من المحاولات العسكرية اثناء صراعه مع كريت اذ لم تلبث الظروف أن تغيرت . فبعد أربعة عشر عاما من وصاية ثيودورا . بلغ الامبراطور ميخائيل الثالث سن الرشد ، وبدأ يضيق بوالدته ، التى حرمته من ممارسة شئون الحكم ، ولم تكتف بذلك ، بل اخذت تتدخل فى حياته الشخصية . وقد ازداد ضيقه نتيجة لتحريض خاله بارداس ، الذى رغب هوالا خر فى التخلص من منافسة ثيوكتيستوس بعد أن انفرد بالسلطة وحده . اضف الى ذلك ان الامبراطور ميخائيل الثالث لم ينجب وريثا ، ومن ثمة فقد طمع بارداس فى

---

(١) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، جـ١١ ، ص ٤٨ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٢ ، ص ٢٩٤ .

(٢) الاشتوم هو موضع فى شمال دلتا النيل يطل على البحر المتوسط ، ويعرفه ياقوت بقوله : ومن شمال دمياط يصب ماء النيل إلى البحر الملح فى موضع يقال له الاشتوم عرض النيل هناك مائة ذراع « ويمين هذا الموضع تنيسل ستة فراسخ ، وكان له سور وبابان من الحديد كان الخليفة المعتصم قد امر بصنعهما .
انظر ، ياقوت : معجم البلدان ، جـ٨ ، طبعة بيروت ، ص ٤٧٣ ، الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، جـ١١ : ص ٤٨ ، ابن الاثير : الكامل ، جـ٧ ، ص ٢٦ .

(٣) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، جـ١١ ، ص ٤٨ ، المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ٣٤٦ ، ابن الاثير : لكامل ، جـ٧ ، ص ٢٦ .

ان يرث العرش الامبراطورى . وهكذا قربت الظروف بين ميخائيل وخاله بارداس وجعلتهما حليفان طبيعيان يسعيان معا للتخلص من سيطرة ثيودورا وتيوكتيستوس . وقد تم تنفيذ المؤامرة ضد هذا الاخير ، حين هاجمه جماعة من اتباع الامبراطور ، واغتالوه بالقصر الامبراطورى فى ٨٥٦ م (٢٤٢ هـ) ثم اعلن السناتو ميخائيل امبراطورا وحيدا ، وكان اول عمل قام به هو ادخال والدته الدير (١)

والصورة التى وصلتنا عن ميخائيل الثالث تظهره فى مظهر الشخص المنغمس فى اللهو ، المدمن على الخمر ، حتى اطلقت عليه المصادر البيزنطيه لقب «السكير» . ولكن يجب ان ننظر بعين الحذر الى ما جاء فى هذه المصادر ، اذ حرص اباطرة الاسرة المقدونية على تلطيخ سيرة الاباطرة العموريين واظهارهم فى مظهر سئ ومنفر . على ان المؤكد - كما يذكر المؤرخ اوستروجورسكى - ان الامبراطور ميخائيل لم يجنح الى الفضيلة فى حياته ، وان شخصيته جمعت المتناقضات ، فبينما نجده لا يدخر جهدا فى الدفاع عن الممتلكات البيزنطية ضد الاعداء ، ويقود الجيوش بنفسه فى ساحة القتال الا انه فى نفس الوقت ، كان ذا شخصية ضعيفة ، يسيرها الاخرون ، متبعا لنزواته ومحبا للهو (٢) .

---

(1) Monachus op. cit. p. 823; Symeon Magistri op. cit. p. 658; heopTh anes Continuatus p. 203.

انظر كذلك المرجعين التاليين :

Ostrogorsky, History of the Byzantine State, p. 197.; Vasiliev op. cit., p. 359.

(2) Ostrogorsky, op. cit., p. 198.

وهكذا فقد اتيحت الفرصة للقيصر باردا س للسيطرة على الحكم وتصريف شئون الامبراطورية بشكل يكـــاد يكـــون تاما لمدة عشر سنوات (٨٥٦ — ٨٦٦ م / ٢٤٢ — ٢٥٢ هـ) اظهر خلال هذه المدة كفاءة ممتازة ، فعمل على اصلاح دائرة القضاء ، وقوم بعض العيوب الموجوده فى الجيش ، واهتم بنشر التعليم ، وابدى تفهما واضحا لشئون الكنيسة ، وحرص على ملـــئ الخزينة الامبراطورية بالاموال ، كما دافع عن الدولة ضد الاعداء المتربصين بها من كل جانـــب (١) .

وجدير بالذكر انه خلال هذه المرحلة من مراحل الصراع بين الدولة البيزنطية وجزيرة كريت الاسلامية ، اظهر المسلمون بكريت تفوقا عسكريا عظيما على الدولة البيزنطية ، فقد اخذوا يذرعون البحر الايجى جيئة وذهابا دون ان يعرض لهم احد . وقد انتهزوا فرصة هجوم الروس على القسطنطينية فى عام ٦٠ م (٢٤٥ — ٢٤٦ هـ) ، وقاموا بغارة كبيرة على جزر السيكلاديز ويذكر صاحب صلة ثيوفان ان الاسطول الكريتى الذى قام بهذه الغارة كان يتكون من سبع وعشرين سفينة حربية ، وبهذا الاسطول هاجم المسلمون جزر السيكلاديز واستباحوها ، كما هاجموا شواطئ آسيا الصغرى واستولوا على غنائم وفيرة وعلى العديد من الاسرى (٢). ثم عاود الكريتيون الاغارة عـــلى جزر البحر الايجى واستولوا على جزيرتى لسبوس Lesbus (٣)

---

(1) Finlay, History of Greece, vol 11, p. 191, Vasiliev, Histoire de l'empire Byzantin, vol 1, pp. 359—360.

(2) Theophanes Continuatus, Liber IV, p. 196.

وقد اشار إلى هذه الغارة ايضا المؤرخ البيزنطى المتأخر نسبيا زوناراس ولكن بايجاز شديد ، انظر :

Zonaras, op. cit., Tomus III, p. 404.

(٣) بشان جغرافية هذه الجزيرة انظر الفصل الاول من البحث.

وميتلين Mitylen (١) ، وبقيت هاتان الجزيرتان تدينان بالتبعية لكريت الاسلامية لفترة طويلة من الزمن . وفى عام ٨٦٢ م (٢٤٧ — ٢٤٨ هـ) ، قام مسلمو كريت بالاغارة على دير جبل آتوس ، فروع رهبانه ولاذوا بالفرار . وفى عام ٨٦٦ م (٢٥٢ هـ) اغاروا على جزيرة صغيرة تدعى نيون Neon بالقرب من آتوس واسروا بعض سكانها ، ثم عاودوا الاغارة عليها مرة اخرى بعد فترة وجيزة (٢) .

وهكذا وجدت الامبراطورية البيزنطية نفسها امام عدو قوى ، روع البحر الايجى والسواحل المطلة عليه بغاراته ، واصبح من الضرورى القيام بعمل ايجابى لوضع حد لهذه الغارات المتكرره على ممتلكاتها . ولتحقيق ذلك اخذ القيصر باردأس فى أعداد حملة على كريت تولى الاشراف عليها بنفسه ، وقد اشتركت فى هذه الحملة اساطيل الولايات البحرية الآسيوية وخيرة رجال الامبراطورية من البحارة والعسكريين. ولكن ظروفا استجدت على مسرح الاحداث عرقلت تحرك هذه الحملة وانتهى امرها بالفشل مثلما فشلت حملات سابقة بيزنطية على كريت ، وكانت هذه الظروف خاصة بالمؤامرة التى تزعمها باسيل المقدونى ، والتى انتهت باغتيال القيصر باردأس. وعلى هذا فمن الاهمية بمكان الاشارة الى باسيل ومؤامراته والآثار المترتبة عليها والتى

---

(١) تقع جزيرة ميتيلين إلى الجنوب من لسبوس وهى تمتاز بكثرة تعاريج سواحلها عما هيأها وجود مجموعة من المرافىء الطبيعية على جوانبها المختلفة ، والجدير بالذكر ان الجزيرة قد خصصت فى العصر الحديث إلى جزيرة لسبوس . واصبحت اهم مدنها ، ويوجد بها بعض الآثار التى ترجع إلى العصور الوسطى . من بينها ١٤ جامعا و ٧ كنائس . انظر :

Encyclopdia Britannica, vol 13, p. 962.

(2) Theophanes Continuatus, Liber IV, p. 197.

وراجع كذلك ، فازيلييف : العرب والروم ، ص ٢٢٦ .

كان اهمها فشل المحاولة العسكرية ضد كريت ، والاطاحة بالاسرة العمورية وتأسيس اسرة جديده هى الاسرة المقدونية تربعت على العرش البيزنطى ما يقرب من القرنين من الزمان وان كان فى عهدها قد تم توجيه اخر حملة كبيرة ضد كريت انتهت بالاستيلاء عليها .

ولد باسيل فى عام ٨١٢ م (١٩٦ — ١٩٧ هـ) ، واستقرت اسرته فى مدينه ادرنه ، وقد تعرضت هذه المدينة لهجمات البلغار فى عهد الملك البلغارى كروم (٨٠٨ — ٨١٤ م) (١) ووقع باسيل واسرته اسرى فى ايديهم ، فحملوهم معهم ، وانتهى بهم المطاف الى الاستقرار مرة اخرى فى اقليم مقدونيا . وحينما بلغ باسيل الخامسه والعشرين من عمره التحق بخدمة الحاكم البيزنطى لاقليم مقدونيا ، ولكنه رأى ان الولايات اضيق من ان تحقق طموحه فصمم على ان يجرب حظه فى القسطنطينية ذاتها ، فشد رحاله اليها ، وحين نزل بها التحق بالخدمة فى احد الأديرة وهناك رآه احد رجال الحاشية ويدعى ثيوفيلتزيس Theophilitzes وكان يمت بصلة القرابة للامبراطور ميخائيل الثالث ، فأعجب بقوته الجسمانية وألحقه بخدمته . وحدث ان اهدى الى الامبراطور ميخائيل احد الخيول الاصيلة ، ولكنه كان فرسا شرسا لم ينجح احدا فى ترويضه فاقترح ثيوفيلتزيس على الامبراطور ان يقوم خادمه باسيل بمحاولة ترويض هذا الفرس ، وادى باسيل المهمة فى سهولة ويسر ، فاعجب به الامبراطور والحقه بالخدمة فى القصر الامبراطورى فى وظيفة قائد الحرس الاجنبى ، وخلال فترة وجيزة تنقل باسيل من منصب الى اخر

---

(1) Encyclopedia Britannica, vol 13, p. 498.

حتى وصل الى منصب كبير الحجاب مع حمله لقب بطريق Patrician (١)

وهكذا توطدت الصداقة بين باسيل والامبراطور ميخائيل (٢) ، ثم بدأت الغيرة تدب فى قلب باسيل نتيجة لاستيلاء القيصر بارداس على شئون الحكم فى الامبراطورية فأخذ فى تحريض الامبراطور ضد خاله القيصر . ولكن ميخائيل لم يستمع الى هذه الوشايات ، اذ كان يدرك تماما ان الامبراطورية فى حاجة لمن يدبر شئونها وليس هناك من يقوم بهذه المهمة افضل من خاله بارداس . فلجأ باسيل الى حيلة بارعة بأن سعى لمصادقة زوج ابنة القيصر بارداس ويدعى سيمباتيوس Symbatius ووعده بأن يحل محل حماه القيصر فى حاله القضاء على هذا الاخير . وبناء على ذلك قام سيمباتيوس بابلاغ الامبراطور ميخائيل ان خاله يدبر مؤامرة للاطاحة به وقتله ، وهنا صرح الامبراطور لسيمباتيوس وباسيل بقتل خاله القيصر بارداس (٣) .

---

(1) Genesius, op. cit., p. 109; Theophanes Continuatus, p. 231.

وجدير بالذكر ان لقب بطريق كان اعلى لقب يمنح للاعيان فى بيزنطه حتى ذلك الوقت وهو لقب انشأه الامبراطور قسطنطين الأكبر خلال النصف الأول من القرن الرابع الميلادى ، وكان هذا اللقب يمنح فى بادىء الأمر فى نطاق محدود جداً ، وبمرور الزمن تزايدت اعداد من يحملون هذا اللقب حتى بدا وكأنه مباحا للجميع . انظر رانسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص٩٢ (الترجمة العربية) .

(٢) يقال ان باسيل تزوج فى هذه الفترة من مارية المقدونية ، ولكن الأمبراطور ميخائيل اعادها الىمقدونيا وزوجة من ايدوكيا انجرينا Eudocia Ingerina عشيقة الامبراطور الذى ظل على علاقته بها بعد زواجها ، ويقال ان الامبراطور انجب منها ولدين هما الاسكندر وليو (وهما اللذين توليا العرش الامبراطورى فيما بعد) واضطر باسيل للاعتراف بهما كابنين شرعيين له . انظر :

Bury, History of the Eastern Roman Empire, p. 169; Finlay, op. cit., vol 11, p. 192.

(3) Symeon Magistri, op. cit., pp. 675—676, Theophanes Continuatus, vol V, p. 236

وقد ادرك القيصر ان هناك مكيدة تدبر ضده ، بعد ان لاحظ تغيرا فى معاملة الامبراطور ميخائيل له ، فاظهر تردده فى الذهاب على رأس حملة كريت خوفا على حياته ، ولكن الامبراطور أكد له انه لاداعى للتردد او الخوف .

وفى ٢٥ مارس ٨٦٦ م (٤ ربيع الاول ٢٥٢ هـ) وبعد الاحتفال باحد الاعياد الدينية فى كنيسة العذراء بالقسطنطينية ، اقسم الامبراطور وباسيل امام البطريرك على الآثار المقدسة انهما لايضمران شرا للقيصر وان عليه انيصحب الحملة دون خوف (١) .

وفى ٧ ابريل ٨٦٦ م (١٦ ربيع الاول ٢٥٢ هـ) وبعد الاحتفال بعيد الفصح ، سافر الامبراطور وباسيل والقيصر برداس الى مكان اجتماع الحملة المزمع ارسالها الى كريت ، وكانت تعسكر فى مكان يدعى كيبوس Cepos على فروع نهر الميائدر فى اقليم التراقيسيون ، وطال انتظار بارادس لأوامر الامبراطور بالرحيل الى كريت ، وحين نفذ صبره ، توجه الى خيمة الامبراطور ميخائيل فى يوم ٢١ ابريل ٨٦٦ م (٣٠ ربيع الاول ٢٥٢ هـ) وطلب اليه ان يعجل باصدار اوامره بتحرك الحمله ، وعندئذ هجم عليه باسيل وسيمباتيوس وباقى المتآمرين ، وقطعوه اربا على مرأى من الامبراطور وبمقتل القيصر بارداس قائد حملة كريت ، انتهى امر هذه الحملة بالفشل ، فتفرق شملها وعاد الامبراطور الى القسطنطينية (٣) .

---

(1) Symeon Magistri, op. cit., pp. 676—677.

(2) Monachus, op. cit., pp. 829—830; Symeon Magistri, pp. 678—679: Theophanes Continuatus, vol V, pp. 235—380; Genesius, op cit., p. 103.

(٣) وذكر المؤرخ البيزنطى المتأخر نسبياً زوناراس ذلك بقوله :

«Imprator Omissa Cretensi escpeditione Byzantium redu»

وترجمتها باللغة العربية « اهمل الامبراطور حملة كريت وعاد إلى بيزنطه » وذكر المؤرخ كيدرينوس نفس هذا المعنى ، انظر :

كيدرينوس : حـ ٢ ، ص ١٨٠ . باليونانية.

وقد ادى مقتل القيصر برداس الى سخط عام بين جماهير العاصمة ، وعبر احد الرهبان عن هذا السخط حين رأى الامبراطور يعبر احد الطرق فصاح به قائلا : «حياك الله ايها الامبراطور تحية من حملتك المنتصرة ، لقد عدت وانت ملطخ بالدم ، وهذا شأنك وحدك» . وانتهى الامر بأن انقض عليه الحرس الامبراطورى والقوا القبض عليه ، ولكن الاهالى نجحوا فى تخليصه من ايديهم وحمايته (١)

وبعد مقتل القيصر بارداس ازدادت اواصر الصداقة بين الامبراطور ميخائيل وباسيل المقدونى ، فقام الامبراطور بتبنيه كما منحه لقب ماجستر Magistrus (٢) ثم قرر رفعه الى العرش الامبراطورى بأن يصبح شريكا له فى الحكم ، حيث كان نظام الحكم فى بيزنطة يسمح بتعدد الاباطرة الجالسين على العرش

فقد كان العرش البيزنطى فى المقام الاول انتخابيا وكان من لهم حق الانتخاب هم السناتو ، والجيش ، وشعب القسطنطينية ، فكان لزاما ان تنادى هذه الهيئات او واحدة منها بامبراطور ، ثم تمارس شعائر تتويجه ، حتى يصبح حكمه عندئذ مطلقا يستوجب رضاء الناس . على انه ان ظهر انه غير مقتدر جاز لاى واحده من هذه السلطات الثلاث الناخبة ان تعلن بدلا منه

---

(1) Symeon Magistri, op. cit., p. 677.

(2) Theophanes Continuatus, p. 238.

هذا ويعتبر لقب الماجستر أعلى لقب شرف يمنح لكبار القوم ، وبظهوره فى ذلك الوقت من عام ٨٦٦ م ، اصبح اعلى من لقب البطريق الذى سبقت الاشارة اليه . والجدير بالذكر ان المؤرخ رانسيمان يذكر أن لقب الماجستر ظهر فى القرن العاشر الميلادى ، ولكن اتضح الان ان هذا اللقب ظهر فى أواسط القرن التاسع الميلادى . انظر رانسيمان : الحضارة البيزنطية ، ٩٢ .

امبراطورا جديدا . وفى الواقع ان مبدأ الانتخاب هذا كان يخضع لتعديل اساسى ، هو أن من صميم حقوق الامبراطور فى الولاية والسلطان ، انه يستطيع ان يضم اليه بحق الاختيار اباطرة آخرين ، حتى لا تتعرض الامبراطورية مطلقا لحدوث فترة شغور فى ولاية العرش . غير ان كان لابد لمن لهم حق الانتخاب ان يعلنوا موافقتهم الرسمية على هذا الاختيار بالهتاف لذلك فقد تعدد الاباطرة المتعاصرون وربما وصل عددهم فى بعض الاحيان الى خمسة . على ان امبراطورا واحدا فقط هو الذى يمارس السلطة الحقيقية ويميز بلقب اوتوقراطور باسيليوس اما الاخرون فهم شركاء بالاسم فقط او شركاء خاملون لا يتدخلون فى شئون الحكم . فاذا ما توفى الاوتوقراطور باسيليوس ، خلفه فى ممارسة الحكم بصورة آليه من يليه فى الاسبقية والاقدمية. وتحقيقا لهذا المبدأ اراد الامبراطور ميخائيل الثالث ان يصبح باسيل المقدونى زميلا له على العرش . وفى يوم ٢٦ مايو ٨٦٦ م (٤ جمادى الاول ٢٥٢ هـ) واثناء احد الاحتفالات فى كنيسة سانت صوفيا اعلن باسيل المقدونى امبراطورا وقد اورد المؤرخ البيزنطى المعاصر موناخوس نص هذا الاعلان ، الذى قرأه على الجميع السكرتير الامبراطورى المدعو ليو كاستور Leo Castor وكان نصه كالاتى : «لقد تآمر على القيصر بارداس ليذبحنى ، ولهذا السبب اقنعنى بترك المدينة (القسطنطينية) . لو لم أبلغ بالمؤامرة بواسطة سيمباتيوس وباسيل ، لما كنت على قيد الحياة الآن . وقد مات القيصر نتيجة اثمه . هذه رغبتى ، مادام باسيل يخلص لى ، ويحمى سيادتى ، ومادام قد انقذنى من

---

(١) رانسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ص ٦٥ – ٦٧ .

اعدائى ، ويحمل لى الكثير من الود، لذا يجب ان يكون حارسا وقيما على امبراطوريتى ، ويجب ان ينادى به الجميع امبراطورا» (١) .

وعقب ذلك سلم ميخائيل تاجه الى البطريرك ، الذى وضعه على المائدة المقدسة وأدى الصلاة فوقه ، ثم توج به الامبراطور ميخائيل ، الذى رفعه عن رأسه ووضعه على رأس باسيل المقدونى ، الذى اصبح منذ تلك اللحظة الامبراطور باسيل (٢) . وقد استمر الحكم المشترك لهما ما يقرب من عام ونصف العام ، كان باسيل خلال هذه الفترة هو المتصرف الوحيد فى شئون الحكم ، اما ميخائيل فقد زاد انغماسه فى اللهو والشراب (٣) . ولكن لم تلبث العلاقات بينهما ان ساءت ، فأثناء احدى سهرات الامبراطور وكان برفقته باسيل وزوجته ايدوكيا انجرينا وأحد أصدقائهم ويدعى البطريق باسيليكينوس Patrician Basilikinos وبعد أن اسرف ميخائيل فى الشراب كعادته ، طلب من البطريق باسيليكينوس ان يخلع الخف الاحمر (احد شارات الملك) من قدميه ويرتديها هو ، فتردد

---

(١) ونص الاعلان باللغة اللاتينية هو :

«Bardas Caesar Contra me coniuravit, ut neci me traderet eaque ratio est cur me eduxerit ex urbe. Ac nisi mihi a Symbatio et Basilio detectae essent insidiae non esset mihi iam vita superstes. Porro mortuus est Suo is scelere. Volo autem, Basilium ut qui fidelis sit meamque custodiat maiestatem, Ac qui ab hoste me liberaverit, multaque' me prosequature amoris vi, mei esse imperu custodem, eiusque iura prospicere et ab omnibus salutari tanquam imperatorem,» Monachus op. cit., p 832 انظر :

وقد أورد هذا النص كذلك المؤرخ البيزنطى الماجستر سيميون ، انظر :

Symeon Magistri, op. cit., pp. 679—680.

(2) Monachus, op. cit., p. 833.

باسيليكينوس ونظر إلى باسيل ، الذى أشار إليه بألا يفعل . ولكن الامبراطور ميخائيل ، أصر على أن يقوم البطريق بكل ما أمره به ، ثم صاح بباسيل قائلا : «ان الخف الاحمر يليق به أكثر منك ، لقد توجتك امبراطورا ، وما تزال لدى السلطة لكى أتوج امبراطورا آخرا إن شئت» (١) . ثم أخذ يؤكد لهم أنه جاد تماما فى رغبته فى تتويج باسيليكينوس امبراطورا . ومنذ هذه اللحظة بدأ باسيل يفكر فى الخلاص من الامبراطور ميخائيل ، حتى تم له ذلك فى ليلة ٢٥ سبتمبر ٨٦٧ م (١٩ رمضان ٢٥٣ هـ) حين هجم هو وآخرين ممن اشتركوا معه فى المؤامرة ، على الامبراطور ميخائيل فى حجرة نومه واغتالوه وفى الصباح أعلن على الشعب نبأ وفاة ميخائيل الثالث آخر أباطرة الاسرة العمورية ، فلم تبد الجماهير اهتماما كبيرا بالنبأ . ثم أعلن باسيل المقـــدونى امبراطورا وحيدا على العرش البيزنطى (٢) . وكان ذلك بداية إنشاء أسرة جديدة فى التاريخ البيزنطى هى الاسرة المقدونية ، التى استمرت فى الحكم فترة طويلة من الزمن لعبت خلالها دورا هاما فى الصراع مع جزيرة كريت الاسلامية ، حتى تم لها استعادتها من المسلمين ، وذلك على النحو الذى سيتضح فى الفصلين التاليين .

---

(1) Theophanes Continuatus, p. 249.

(2) Monachus, op. cit., pp. 836—838; Theophanes Continuatus; p. 242; Zonaras, op. cit., Tomus III, pp. 415—418.